

سبكان الذي أمرني بسبكه من
من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى

الإيمان و الإسراء و المعراج

0156809



Bibliotheca Alexandrina

سليح محمد حسن

الإيمان و الإسراء و المعراج

سعيد محمد حسن

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت
وما توفيقى إلا بالله

صدق الله العظيم

مقدمة

يحتوى هذا الكتاب على محاولة مخلصه - وأزعم أنها جادة وواعية - لتحديد الأسباب التى فرضت الإسراء بمحمد ﷺ والعروج به .

ولقد فرغت من كتابته تحديداً منذ عشرين عاماً ، لكن الأمر اقتضى التمهيد له بدراسة عن حدث الإسراء والمعراج ذاته (حقيقته والآراء التى دارت حوله) وأثناء إعدادها تبين أنها تحتاج إلى مقدمة ، لكن المقدمة فرضت نفسها فصدرت فى أوائل عام ١٩٧٦ فى كتاب مستقل تحت عنوان (رأى فى الفكر الإسلامى) ثم تبعته الدراسة فى أواخر عام ١٩٧٧ تحت عنوان (حقائق الإسراء والمعراج) .

أما مسودات هذا الكتاب فقد توالى عليها تداعيات الحياة وتراكماتها فتواتر طوال أربعة عشر عاماً حتى اندثرت وأصبحت نسياً منسياً . . وكان المقدر أن تبقى كذلك ، لكن شعاعاً حانياً سطع فجأة ، أزاح غيوم الإحباط والرتابة والملل ، فكان بعض الأمل ، وكان قليل من العزم الذى انتهى - بتوفيق من الله - إلى انتشار هذا الكتاب من تحت الأنقاض .

وفى الجزء الاول (رأى فى الفكر الإسلامى) أوضحت - فى دراسة نظرية - كيف ومتى أصيب المسلمون بالعقم وبالجمود الذى انتهى بهم إلى ما هم عليه الآن من تخلف وضياع .
وفى الجزء الثانى (حقائق الإسرائء والمعراج) قدمت الدليل العملى - على ما سلف - فى دراسة موضوعية لحدث الإسرائء والمعراج من خلال تناول المسلمين له ، ونظرتهم إليه طوال أربعة عشر قرناً .

أما هذا الجزء الأخير فإنه ، وإن استهدف تحديد الأسباب التى فرضت الإسرائء والمعراج ، إلا أننى أردته - ترتيباً على الجزأين السابقين - أن يكون نموذجاً لما يجب أن تسلكه الدراسات الإسلامية لخدمة دينها .

.. هناك إذن ارتباط وثيق بين أجزاء الكتاب الثلاثة يحملنى على الاعتراف بأن صدورهما - على نحو ما جرى - متفرقة ، وعلى فترات متباعدة قد أضعف أثرها وبدد معظم الغاية المستهدفة منها .

والله أسأل أن يتقبل ما قدمت وما أخرت ، لا بقيمته ولا بأثره ، بل بنيتى فيه ودوافعى إليه .

القاهرة - ديسمبر ١٩٩٤ .

سادت النظرة المادية خلال القرنين الماضيين وبرزت كحقيقة راسخة ، وشاع الرأي بأن على الإنسان أن يدرك أنه مخلوق بالغ الصغر يسكن كوكباً تافهاً يدور حول نجم لا شأن له . واستقر فى منظور العلم الحديث أن المادة وحدها هى الحقيقة ، وأن الكون قد نشأ بالصدفة ، ومن ثم فليست هناك حكمة وراء الأشياء ، وأن العقل ذاته ليس إلا نتاجاً ثانوياً لنشاط خلايا المخ .

وطبقاً لتلك النظرة أو النظرية فإن تفسير تصرفات الإنسان لا يتم إلا فى ضوء قواعد الفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) والكيمياء والفيزياء ، فالتغيرات المادية هى التى تسبب الأفكار لا العكس ، واستطرداً مع هذا التصور الذى يرى أن الفكر والإرادة ليسا إلا نشاطين من أنشطة الدماغ ، فليس هناك أدنى احتمال لإمكان استمرارهما بعد فناء الإنسان .

لكن كيف يثبت العقل من المادة ؟

ذلك ما عجز علماء القرن التاسع عشر عن تحديده ، لكنهم علقوا الآمال - لإثبات ما لم يبلغوه - على التقدم العلمى المتوقع فى القرن العشرين ، بيد أن العكس هو الذى حدث .

فقد ثبت بالعلم التجريبى انفصال (العقل والإرادة) عن نشاط

خلايا المخ ، وأنهما بالتالى يمثلان جوهرأ متميزأ ومختلفأ عن الجسم ، وأحد العلماء الذين بدءوا أبحاثهم لتثبيت دعائم النظرية المادية يقول :

« طوال حياتى العلمية سعت جاهداً كغبرى من العلماء إلى إثبات أن الدماغ يفسر العقل ، وياله من أمر مشير ، أن نكتشف أن العالم يستطيع بدوره أن يؤمن عن حق بوجود الروح ، وإذا كان العقل والإرادة غير ماديين فلاشك أن هاتين الملكتين لا تخضعان بالموت للتسحلل الذى يطرأ على الجسم والدماغ كليهما » (١)

فالتخلاف حول ماهية الإنسان أوشك أن ينتهى ، فأغلب الآراء وأحكمها على أنه يتكون من :

مادة : هى ذلك الجسم المشاهد المحسوس الذى خضع منذ فجر التاريخ لمحاولات سبر أغواره وكشف أسرارهِ ، فالبحث فى مكونات الجسم البشرى وفحص مركباتهِ ليس فحسب نزعة إنسانية متقدمة بل هو ضرورة ملحة فى ذات الوقت ، وقد تمشى القرآن الكريم مع هذه النزعة ودعا إليها فى آيات عديدة منها قوله تعالى :

«وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون» (٢)
وروح: حجب الله عن البشر أسرارها واختص ذاته بعلمها ..

(١) من كتاب «العلم فى منظوره الجديد» سلسلة عالم المعرفة

(٢) سورة الذاريات - آية ٢٠ ، ٢١

قال تعالى «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» (١)

هذا الفصل بين الروح وبين مادة الجسم ليس فصلاً ميتافيزيقياً . . «فلو كانت الروح مظهراً من مظاهر الجسم لكان من الواجب أن تخضع هذه الروح لقوانين الزمان والمكان مثل خضوع الجسم لها . وحيث إن التجربة تثبت قطعاً أن هذا غير صحيح بالنسبة للروح دون الجسم ، فإن الذى لا بد من قوله هو أن للروح وجود آخر غير الجسم مختلف فى نوعيته ومنفصل فى وجوده» (٢)

وعلى هذا الفصل - بين الروح وبين الجسم - تنهض فى الشريعة الإسلامية وفى غيرها عقيدة البعث والحساب ، لأنه لو كان صحيحاً ما يزعمه الماديون من أن الروح ليست شيئاً خارجياً وإنما هى إحدى صور النشاط المادى للتغيرات الكيميائية والفيزيائية لخلايا الإنسان ، وإنها كصغير القطار يلازمه دون أن يكون له تأثير على حركته ، لتعين التسليم بأن فناء الجسد بعد الموت هو الخطوة الأخيرة فى ملحمة الوجود الإنسانى ، ولسقطت بالتالى كل دعاوى المؤمنين عن الحساب الأخرى وعن الثواب والعقاب ، ولجرت معها كل قيمة أو معنى لحياة البشر ومعاناتهم .

(١) سورة الإسراء - آية ٨٥

(٢) من كتاب «الدين فى مواجهة العلم» لوحيه الدين خان - صفحة ٢ ، ٣٢

ولقد تغيرت الدنيا كثيراً منذ أن تلى محمد صلوات الله وسلامه عليه آية سورة الذاريات «.. وفي أنفسكم أفلا تبصرون» وآية سورة الإسراء «.. قل الروح من أمر ربي» مقررًا أنهما وحى من عند الله ، تضاعفت قدرات الإنسان ، وضرب ببصره فى الآفاق السحيقة والأغوار البعيدة ، وتمزقت الحجب والأستار عن قدر هائل من المعارف التى يساند بعضها بعضاً ويكمل بعضها بعضاً ، وحقق العلم - كخطة القرآن - نجاحاً ملحوظاً فى مجال الإحاطة بجسم الإنسان ، فأصبح يعرف الكثير عن طبيعة أجهزته وعملها ، ووظائف أعضائه وتعاونها ، وتركيب أنسجته ومكوناتها ، وخلال البحث والنظر تحقق قوله تعالى «وفي أنفسكم أفلا تبصرون» فقد خر بعض العلماء سجداً ، مقرين أن هذا الإبداع فى الخلق وذلك التكامل فى التكوين لا يمكن أن يكون مجرد نتيجة بلا مسبب أو توفيق دون منظم .

أما الروح التى تتمتع بهذا الجسد وتحيط به إحاطة السوار بالمعصم ، فحتى اليوم لم يفض تقدم العلوم سرها ، ولم تمس الاكتشافات الحديثة ستراً من أستارها مصداقاً لقوله تعالى «قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً»

بهذا المزيج من الروح والجسد يتكون الإنسان ، وهو ينطلق فى الحياة مستعيناً بخمس حواس ، هى السمع والبصر والحنس والشم والذوق ، ولكل حاسة مجال محدد فى الإدراك ، فحاسة البصر

تدرك الألوان وحاسة السمع الأصوات ، وحاسة الشم الروائح ، وحاسة التذوق الأطعمة ، وحاسة اللمس درجات الحرارة والأنسجة والضغط ، وفي حالات نادرة - كحركة بعض الأشخاص وسعيهم وهم نيام - تعمل تلك الحواس بتأثير غلبة الجسد المنتبه على الروح الغافلة ، وفي حالات كثيرة - كالأحلام - تعمل بتأثير غلبة الروح المنطلقة على الجسد الهامد . أما الأصل في انتظام عمل الحواس وأدائها لوظائفها فهو اشتراك وصحوة مادة الجسم وروحه ، وفي ذلك يقول الإمام الغزالي في تعريفه للروح «إنها جسم لطيف منبته تجويف القلب الجسماني ، فينتشر بواسطة العروق الضواري إلى سائر أجزاء البدن ، وجريانه في البدن ، وفيضان أنوار الحياة والحس والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في روايا البيت» (١)

وحواس الإنسان هي مراكز القوة والسيطرة فيه ، فهي أدواته التي يتلمس بها طريقه ، وآلاته التي يشق بها سبيله ، وإذا كان الحس هو أشمل وأعم تلك الحواس فإن أهمها وأخطرها هما السمع والبصر لما يتصفان به من بعد في المدى ودقة في الإحاطة ، فالأذن تلتقط الأصوات القريبة والبعيدة ، الحاضرة مباشرة ، والماضية نقلا عن الآخرين ، والعين ترصد الأشكال والظلال والألوان حتى الأفق ، وحصيلة ذلك كله تستقر مترابطة في الفؤاد

(١) إحياء علوم الدين . الجزء الثاني صفحة ٦

والمنظم لهذا الجهد هو العقل .

ولقد أتاحت الحواس للإنسان أن يتعرف على عالم مترام ، هو ما يطلق عليه (عالم الشهادة) أو دنيا الشهادة ، أى تلك الموجودات المادية التى يمكن أن نشاهدها بالعين أو نستدل على وجودها بأصواتها أو نلمس للدلالة عليها آثاراً معقولة ، فالوجود الذاتى أو الخارجى - بالنسبة للإنسان - لا يتحقق إلا عن طريق الحواس ، كما أن معارفه عن ذلك الوجود ويقينه بالنسبة لحقائقه ونواميسه لا يتم إلا باستعمال الحواس ، وبدونها لا يكون لدى الذاكرة ما تتذكره ، ولا للخيال ما يتصوره ، ولا للعقل ما يستوعبه ويفهمه .

وعلى قدرات الإنسان الحسية اعتمدت ونهضت العلوم المختلفة منذ القدم ، لكن العلم الحديث حول هذا الاعتماد إلى نظرية صماء ، فقصر وسائل البحث على المشاهدة والتجربة العلمية والاستدلال وأسقط بالتالى القدسية عن كل ما لا يمكن رصده سماعاً أو عياناً أو لا يتم الاستدلال على وجوده بوسيلة حسية .

وفى تقييم هذا المنهج فإنه يتعين الإقرار بأنه قد أدى للبشرية خدمات جليلة ، فقد أمكن عن طريقه تحقيق إنجازات ضخمة ما كان فى الإمكان بلوغها لولا الالتزام الصارم به ، فحواس الإنسان ليست مجرد وسائل لزيادة عناصر الاستمتاع والبهجة أو لتجنب العثرات والمهالك ، بل هى قبل ذلك سبيله الأساسى لاكتساب

العلم ولتحصيل المعرفة ولبلوغ اليقين .

ولا تعارض فى ذلك - بصفة عامة - مع مبادئ العقيدة الإسلامية ، بل إن تلك الخطة لتتفق تماما مع قوله تعالى «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون»^(١)

ولإيضاح ما جاء بالآية الكريمة نستعرضها مجزأة على النحو التالى :

والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا
وجعل لكم السمع والأبصار
والأفئدة

لعلكم تشكرون

ففى الجزء الأول والثانى بيان للقاعدة العامة فى الخلق وفى اكتساب العلم .

فى الخلق : يولد الناس بلا معارف ولا معلومات . . لا يعلمون شيئا .

وفى العلم : يكتسبونه عن طريق ما يرونه بأعينهم وما يسمعون مباشرة فى حينه ، أو بما وقع فى أماكن أخرى وأزمنة سالفة ، فتتجمع المعلومات وترسخ الحقائق لتسجل على صفحة الفؤاد .

(١) سورة النحل - آية ٧٨

لا بأس إذن على الإنسان إن هو أنكر ما لا يقع عليه بصره أو يصل إليه مؤكداً خبره . . فالآية الكريمة - من ناحية - تقرر أنه يكتسب معلوماته ومعارفه عن طريق سمعه وبصره ، ومن ناحية أخرى فإن القرآن الكريم وهو يستحث البشر على الإيمان قد حرص كثيراً على مخاطبتهم بـ «أفلا تسمعون» و «أفلا تبصرون» وإذا كان قد خاطبهم كذلك بـ «أفلا تعقلون» و «أفلا تتفكرون» فالواقع أن ذلك إنما يريد في مرحلة تالية ، فنحن لا نستطيع أن نعقل أو نتدبر إلا بعد أن نلمس أو نسمع أو نرى ، وبذات المنطق فإن الشكر الذى تشير إليه الآية الكريمة فى ختامها لا يتحقق إلا فى مرحلة أخيرة ، يسبقها إطالة النظر وإصاخة السمع حتى نعلم من خلقنا فأحسن صورنا ، ومن أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، فتلهج ألسنتنا حمداً له وتسبح جوارحنا شكراً له . فقلوه تعالى فى سورة النحل «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» هو بمثابة قاعدة عامة تحدد فى تعبير محكم سبيل الإنسان لاكتساب المعرفة فى إطار ما تتيحه حواسه من قدرات ، والنهج الذى رسمته الآية الكريمة يتفق بصفة عامة مع النظرة المادية المستقرة فى مجال العلوم الحديثة التى تعتمد على التجربة والملاحظة والاستدلال ، أو بمعنى آخر لا تعترف إلا بما تستشعر الحواس وجوده .

غير أن القرآن الكريم لم يقف عند هذا المنهج المادى وحده ،

فهو بعد أن حدد نطاقه وأبعاده ، ووسائله وأدواته ، أشار كثيراً إلى منهج إيماني آخر يتعلق بموجودات لا طاقة للبشر على الإحاطة بها جملة أو تفصيلاً ، فهي تقع في عالم عرفه القرآن الكريم بأنه «عالم الغيب» .

وبقدر ما تلاءم المنهج المادي للعلم الحديث مع العالم الذي يتكون من مشاهد وأصوات ومحسوسات فإنه عجز وتخطى أمام «عالم الغيب» الذي أجمع رسل الله على وجوده ، وامتلات الكتب السماوية بصور مشاهدته وأخبار أحداثه ، وقبل هذا وذاك فإن أعماق الإنسان تفيض بأحاسيس خافتة لكنها ثابتة عن وجود ذلك العالم الآخر الذي تنتقل إليه روح الإنسان بعد توقف النشاط المادي لجسمه ليمارس فيه نوعاً آخر من الوجود والاستمرار .

ففي مواجهة الإنسان والحواس يوجد عالمان : أحدهما مادي ومشاهد محسوس ، والآخر خفي غيبي مستور ، الأول يسمع الإنسان ويرى من دلائل وجوده ما لا يقع تحت حصر ، أما الثاني فبالرغم من استقرار واستمرار الحديث عنه فليس هناك دليل حسي يؤيد هذا الزعم أو يؤكد ذلك الادعاء ، لكن الإنسان مطالب ليس فحسب بالإيمان بوجوده ، بل وبأن يضبط حياته وتصرفاته لتتمشى مع ذلك الإيمان .

فكيف يؤمن الإنسان بما لم تطلع عليه عين وما لم تستمع له أذن وما لا سبيل لرصده بوسيلة من الوسائل الحسية ؟

إن مواجهة ذلك التساؤل تثير فى العادة مشكلات عديدة تتعذر الإجابة عليها كما يتعذر تجنبها ، تتعذر الإجابة عليها لأن قدرات البشر المتاحة تعجز عن التعامل إلا مع ما هو مادي ملموس ، ويتعذر تجنبها لأن الإنسان يلتقى بها حتماً ، تفاجئه عند أحد منعطفات الحياة على غير انتظار أو توقع ، وهى لا تواجه الكافرين وحدهم ، بل والمؤمنين أيضاً ، منهم من يكتم حديثها ومنهم من يبيده ، منهم من يطيل فيها النظر ومنهم من يتعجل الرأى ، وهى قد واجهت من قبل أحد الشعراء فحسمها على النحو التالى :

أموت ثم بعث ثم نشر * حديث خرافة يا أم عمرو

وبصرف النظر عما اشتمل عليه الشطر الثانى فإن الشاعر قد أثار فى الشطر الأول تساؤلاً منطقياً ، فهو لا يملك سبيلاً للمعرفة واليقين سوى حواسه ، وهو منذ دب على الأرض لم ير جنة ولا ناراً ، ولم يسمع حساباً ولا جزاء ، فضلاً عن أنه لم يصل لعلمه أن هناك من اطلع أو تصنت ، فهو وإن كان يفصح عن مشاعره الخاصة إلا أنه طرح تساؤلاً أزلياً ، راود العقل البشرى وسيظل يراوده . . أبعد هذه الحياة حياة ؟ أبعد أن يبلى الجسد ويفنى العظم يتحقق للبشر وجود آخر فى نار للكافرين سعرت أو فى جنة للمتقين أزلقت ؟

إننا - كمؤمنين - نحب على ذلك كله بالإيجاب ، لكننا نسلم أو يجب أن نسلم بأن ليس ثمة دليل مادي - بين أيدينا - يمكن أن نتقدم به للمنكرين ، وفي فقدان هذا الدليل تنحصر المشكلة التي واجهت ذلك الشاعر ، كما واجهت كثيرين قبله وكثيرين بعده ، فنوقشت في خبايا النفس حيناً ، وتحركت بها الألسن أحياناً ، وإذا كان شاعرنا المجهول قد عبر في إيجازه البليغ عن رأى المنكرين ، فلنستعرض بعض آراء المؤمنين ممن خاضوا علانية فيها .

الإيمان بدنيا الغيب

من وجهة نظر العلامة شبلى النعمانى

فى كتاب (الدين فى مواجهة العلم) يورد وحيد الدين خان نقلا عن العلامة شبلى النعمانى ما نصه «مهما قيل ، فإن روح الدين هى عقيدة المعاد فإن كل ما يتشعب به الدين من تأثير وكل ما للدين من أثر على أفعال الإنسان يرجع إلى قوة هذه العقيدة ، وبقدر ما هى عظيمة الشأن بقدر ما هى عسيرة التصور» (١)

الإيمان بدنيا الغيب

من وجهة نظر الإمام الغزالى

وحجة الإسلام الغزالى واجه المشكلة هو الآخر ، لكنه

(١) الدين فى مواجهة العلم - صفحة ٣٠

استعرضها كتجربة شخصية لا كمشكلة عامة ، ثم إنه لم يواجهها صراحة ، بل اتجه إلى مناقشة (العلم اليقيني) ليستعرض من خلاله الإيمان بالغيب . وفى كتابه (المنقذ من الضلال) يفتح الغزالي عن مشاعره على النحو التالى :

«فقلت فى نفسى : أولا ، إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ، ما هى ؟ فظهر لى ، أن العلم اليقيني هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارناً لليقين مقارنة أو تحد بإظهار بطلانه . . مثلاً فإننى إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لى القائل : لا بل الثلاثة أكثر بدليل أنى أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه . لم أشك بسببه فى معرفتى ، ولم يحصل لى منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ، فأما الشك فيما علمته - من أن العشرة أكثر من الثلاثة - فلا . ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه وكل علم لا أمان معه ، فليس بعلم يقينى ، ثم فتشت عن علومى فوجدت نفسى عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة إلا فى الحسيات والضروريات .

لكن شك الغزالي لم يقف عند هذا الحد بل إنه تمادى فنفى اليقين حتى عن الماديات فقال (فأقبلت بجحد بليغ أتأمل فى المحسّات والضروريات ، وأنظر هل يمكننى أن أشكك نفسى فيها ؟ فانتهى بى طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسّات أيضاً وأخذ يتسع هذا الشك فيها)

ثم يقول أخيراً :

(فأعضل الداء ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيهما على السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمر ويقين ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف) (١)

هكذا طافت المشكلة بالغزالي ، بدأت بنفى اليقين عن كل ماعدا الحسيات والضروريات ، ثم تعاظمت المشكلة بعد ذلك عندما سلك الغزالي سبيل بعض الفلاسفة الذين يشككون في وجود الماديات وفي وجود أنفسهم ، وعلى ذلك فلم يكن لمشكلته من حل إلا - كما قال هو - بنور يقذفه الله تعالى في الصدر .

الإيمان بدنيا الغيب

من وجهة نظر الإمام عبدالحليم محمود

كذلك فقد ناقش فضيلة الدكتور عبدالحليم محمود المشكلة ذاتها ، لكنه واجهها مباشرة ضمن مشاكل أخرى ، ذلك وهو بصدد الحديث عن (الحس ومشاكل ما وراء الطبيعة) و (العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة) فبعد أن أوضح فضيلته تعذر الاستعانة

(١) المنقذ من الضلال . تحقيق الإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود . صفحة ٨٧ وما بعدها

بالحس أو بالعقل لكشف ما وراء الطبيعة واختراق ما وراء المادة والصعود إلى الملأ الأعلى ، يقرر :

«إن تجارب الصالحين ، منذ عصور متطاولة ، دلت على أن تركية النفس وتطهيرها والاتجاه إلى الله والتقرب إليه ، كل ذلك يسمو بالإنسان إلى عالم من الروحانية تستشرف فيه النفس إلى الملأ الأعلى ، فتفيض عليها منه نفحات ، وإلهامات ، ومعرفة لا تتأتى لذوى النفوس المادية الذين شغلوا بالدنيا عن الدين وبالمادة عن الله » (١)

لكن فضيلته يعترف صراحة بأن هذا الحل هو للذين « . . وهبهم الله حساً مرهفاً ، وذكاء حاداً ، وفطرة روحانية ، وصفاء يكاد يقرب من صفاء الملائكة ، وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من النور » (٢)

الإيمان بالغيب

من وجهة نظر الإمام محمد عبده

فى كتابه «رسالة التوحيد» تعرض الإمام محمد عبده لمشكلة الإيمان بدنيا الغيب ، وهو قد بحثها باستفاضة وناقشها بصراحة ، يقول :

«هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب ، هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها إلى الغائب؟ وهل فى طوق الفكر ما يوصل كل أحد إلى معرفة ما قدر له

(١) المرجع السابق - صفحة ٣٩٤

(٢) المرجع السابق - صفحة ٣٩٧

فى حياة يشعر بها ، وبأن لا مندوحة عن القدوم عليها ، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ إلى تفصيل ما أعد له فيها والشئون التى لابد أن تكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه ، أو إلى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشئون ؟ هل فى أساليب النظر ما يأخذ بك إلى اليقين بمناطها من الاعتقادات والأعمال ، وذلك الكون مجهول لديك ، وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة إليك . كلا فإن الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشاعر ، ولا اشتراك بينهما إلا فىك ، فالنظر فى المعلومات الحاضرة لا يوصل إلى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلية» (١)

وبعد هذا التحديد لأبعاد المشكلة يقدم الإمام الحل فيقول :

« . أفليس من حكمة الصانع الحكيم ، الذى أقام أمر الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم . . أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، يميزهم بالفطر السليمة ، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره . . فيشرفون على الغيب بإذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين : نهاية الشاهد وبداية الغائب ، فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها» (٢)

(١) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده - صفحة ٩٣

(٢) المرجع السابق صفحة ٩٤ - والظاهر أن الأستاذ الإمام يرى أن هؤلاء المصطفين هم رسل الله ، لأنه يقول بعد ذلك «ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات ، حتى تقوم بهم الحجة ، ويتم الإقناع بصدق الرسالة ، فيكونون بذلك رسلا من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين » صفحة ٩٥

تلك هى مشكلة الإيمان بوجود دنيا الغيب بكل ما تمثله من
بعث وحساب وجنة ونار ، لعلها قد وضحت وتحددت كنتيجة
طبيعية أو كوليذة شرعية لغياب عنصر الملاءمة بين قدرات البشر
وبين طبيعة دنيا الغيب ، ومن ثم فإنه يمكن القول إنها مشكلة
إنسانية عامة وملحة ، ورغم ذلك فقد تواضع الجميع على تغافلها
والإلتفات عنها ، أما بالنسبة لهؤلاء الذين تصدوا لها ، فقد
اختلفت نظرتهم اليها ، كما اختلفت سبلهم للخلاص منها .

فلقد رأينا من استعرضها مركزة فى نصف بيت من الشعر ثم
عالجها فى النصف الثانى فقال « . . حديث خرافة يا أم عمرو » .

كذلك لاحظنا أن نجاة الإمام الغزالى منها كانت بنور قدفه الله
فى الصدر ، وهو حل شخصى بحث .

أما رأى الذى شرحه مفصلا فضيلة الدكتور عبدالحليم محمود
فهو لا يحل المشكلة إلا بالنسبة لفئة خاصة هى الصفوة المختارة .

ولنرجى قليلا مناقشة الحل الذى ارتضاه الأستاذ الإمام محمد
عبده ، ولترك « الصفوة المختارة » و « أصحاب الحلول الخاصة »
يتقبلون فى نعيم اليقين ، ولنتجه إلى عامة المؤمنين نشاركهم
البحث عن حل هذه المشكلة .

إيمان عامة الناس

تقديم

يقول هنرى برجسون «قد أثبت التاريخ البشرى أنه قد وجدت فى الماضى السحيق جماعات إنسانية ليست لها فلسفات ولا علوم ولا فنون ، ولكن لم توجد قط جماعة إنسانية ليست لها عقيدة تؤمن بها وتدين» .

ويقول الدكتور دراز «وفكرة التدين فى جوهرها ليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأة الإنسان» وهو يستخلص ذلك مما جاء بمعجم (لاروس) للقرن العشرين : مادة (دين) من أن . . . الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحيوانية ، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة ، وهى لا تختفى ولا تضعف ولا تذبل^(١)

ومن الممكن إعادة صياغة ما سبق على النحو التالى :

يولد الإنسان وفى فطرته معارف عديدة ، من بينها واحدة ذات شقين :

(١) من كتاب (الإيمان) للدكتور على عبدالمنعم عبدالحميد . صفحة ٢١ وما بعدها

الاول : وجود خالق للكون المشاهد المحسوس .

الثانى : وجود حياة أخرى بعد الموت .

أثر هذه الفطرة بشقيها نلمسه واضحاً فى كثير من المشاهد البارزة على وجه الأرض ، لا يجحدها إلا من لا وزن لعقله ولا قيمة لرايه .

بالنسبة للشق الاول : فتاريخ البشرية يؤكد أن سعى الإنسان لهذا الخالق قد تمثل فى حركة دائبة شملت العصور المختلفة على تباين المدارك فيها ، إن لم يبعث الله الرسل لهدايته بحث هو واتخذ إلهاً حسب هواه ، واتجاه التفكير الإنسانى تلقائياً إلى هذا المنحى يتساوى مع غريزة النحل فى الاندفاع إلى الورود لالتهام رحيقها واستنشاق عيبرها . ونظرة واحدة إلى ذلك الحشد المتنافر من الآلهة التى ابتدعتها عقول البشر خلال حقبة التاريخ من جمادات وعجماوات ومظاهر طبيعية - اندثر بعضها وما زال الآخر يعبد حتى اليوم - يثبت أن الإقرار بوجود الخالق قد سجل فى فطرة البشر بمداد يصعب محوه أو إزالته .

أما بالنسبة للشق الثانى : فقد اتفقت العقائد السماوية ومعظم الأعراف الإنسانية المقطوعة الصلة بالسماء على تخيل صورة ما لحياة أخرى تبدأ رحلتها بعد نهاية هذه الأولى تفاوتت بين البشر ترتيبات الاستعداد لها ، وعلى سبيل المثال فقد بلغ من رسوخ

هذا الاعتقاد لدى المصريين القدماء أن عملهم وتديبرهم لحياة ما
بعد الموت الغيبية فاق عملهم وتديبرهم لحياتهم القائمة المشهودة .
ففى فطرة البشر مسطور .

أن للكون المشاهد مبدع خلق وقدر وسيطر .

وأن الموت ليس نهاية المطاف ، بل هو الخطوة الأولى إلى عالم
آخر وحياة جديدة .

لكن ما الذى يحدث إذا ما أخضع الإنسان معارفه هذه
للدراسة العلمية ولقواعد البحث الحديث ، فأرهف سمعه وأدار
بصره وحكم عقله .

ذلك ما نستعرضه مفصلا فيما يلى :

كيف يؤمن الإنسان

بوجود خالق للعالم المادى المشهود

للإنسان أذن تسمع وعين تبصر وفؤاد يحفظ ويعى ، وما وهبنا الله الحواس للزينة ، وما أنعم علينا بها للاستمتاع ، يقول جل شأنه « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا » (١) فعلة منح السمع والبصر هى :

أن يتحمل الإنسان تبعه اختياره وعاقبة قراره وهو يجيب على السؤال التالى :

هل لهذا الكون إله ؟ وهل بعد هذه الحياة حياة ؟

فالهدف الرئيسى من استعمال الحواس يجب أن يكون : الاستدلال من روعة الخلق وانتظام الكون على وجود الخالق وعظمته .

فإذا أعرضت الحواس عن تلك المهمة الشريفة وانصرفت إلى اللهو والعبث فإن صاحبها يندرج فيمن قال الله فيهم « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » (٢) لا بحرمانهم نعمة السمع

(٢) سورة محمد - آية ٢٣

(١) سورة الإنسان - آية ٢

والبصر ، بل بتأكيد صرف حواسهم عما كان ينبغي أن تتجه إليه فيتخبطون فى الحياة . . «ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . . » (١)

إن القول بأن وجود الصنعة دليل على وجود الصانع لم يعد قولاً حماسياً ساذجاً ، بل حقيقة لا يمارى فيها العلم الحديث ، فلينظر الإنسان إلى النبت الأخضر الطرى ، من أين جاء بالقوة ليشق طباق الأرض الصلبة ، ضارباً فى بطنها إلى أعماقها ، وفى وجهها إلى صفحة السماء ؟ ليستمع إلى ما يمكن أن ينجلى عنه تقدم العلوم فى الماء ينزل من السماء هو الماء ، والأرض تمتصه هى الأرض ، فمن أين جاء الثمر بهذا الاختلاف فى الشكل ، فى المذاق ، فى اللون والرائحة ؟ ليسأل الشمس إذا طلعت فاشتعل وجه الأرض بالحركة والنشاط ، وليتأمل الليل إذا ما سجد فهجعت الأحياء وسكنت الأعضاء ، أصدفة عمياء ربتت تواليهما هكذا بما يتلاءم وقدرات الإنسان ؟

إن نهراً صاخباً يفيض بالماء أو نقطة واحدة فيه ، إن سماء صافية أو ملبدة بالغمام ، فى رابعة النهار مشرقة أو فى صميم الليل متشحة بالسواد . . لا شئ فى هذا الوجود إلا ويردد مسيحاً «خلقنى الواحد القادر القهار»

فالأدلة على وجود الخالق ووحدانيته تقوم فى السماء التى تظل

(١) سورة الاعراف - آية ١٧٩

الإنسان وفي الأرض التي ثقله . منها ما عرض للبسطاء محدودى الذكاء ، ومنها ما خبىء للمتدبرين وللمتفكرين وللباحثين ، والإجماع يكاد ينعقد على وجود ووحداية الله خالق العالم المادى المشهود ، حتى الذين ينكرون الآخرة ويشركون يشهدون ، وقد سجل القرآن الكريم اعترافهم فى قوله تعالى :

«ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله..» (١)

«ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون» (٢)

«ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون» (٣)

وبعد أن ماطل العلم الحديث فى وجود الله عاد يسلم بذلك ويقر ، وفى كتاب «الله يتجلى فى عصر العلم» اعترافات لثلاثين عالماً من المتخصصين فى الطبيعة والكيمياء والرياضة والأحياء والنبات والوراثة يسطرون فيها كلمة العلم فى وجود الله ، نختصر بعض ما جاء فيها :

يقول جون كليفلاند كوثران ، من علماء الكيمياء والرياضة :
(فإذا كان هذا العالم المادى عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التى

(٢) سورة العنكبوت - آية ٦٢

(١) سورة العنكبوت - آية ٦١

(٣) سورة الزخرف - آية ٨٧

يخضع لها فلا بد من أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي ، وتدل الشواهد جميعا على أن هذا الخالق لابد أن يكون متصفاً بالعقل والحكمة إلا أن العقل لا يستطيع أن يعمل في العالم المادي كما في ممارسة الطب والعلاج السيكلوجي دون أن تكون هناك إرادة ، ولابد لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجوداً وذاتياً . وعلى ذلك فإن النتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالفاً فحسب ، بل لابد أن يكون هذا الخالق حكيماً عليمًا قادراً على كل شيء حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره (١)

ويقول إدوارد لوثر كيسيل (ولما كانت الحياة لاتزال قائمة ، ولا تزال العمليات الكيميائية والطبيعية تسير في طريقها ، فإننا نستطيع أن نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود ، وهكذا توصلت العلوم - دون قصد - إلى أن لهذا الكون بداية ، وهي بذلك تثبت وجود الله ، لأن ما له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه ولابد له من مبدئ أو من محرك أول ، أو من خالق ، وهو الإله (٢)

وكذلك يقول إيريل تشتر ريكس عالم الرياضيات والفيزياء (. . هنالك ظواهر عديدة تدل على وحدة الغرض في هذا الكون وتشير إلى أن نشأته والسيطرة عليه لابد أن تتم على يد إله واحد لا آلهة متعددة (٣)

(١) من كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان

(٢) المرجع السابق - صفحة ١٠٦

(٣) المرجع السابق - صفحة ٢٧

وأخيراً يقول مالكوم دنكان (. . إن الأرض والسموات بسائر تعقيداتهما ، والحياة فى شتى صورها وأخيراً الإنسان بكل قدراته العليا ، كل هذا أشد تعقيداً من أن يتصور الإنسان أنه حدث هكذا وحده أو بمحض المصادفة ، فلا بد إذن من عقل مسيطر ، من إله خالق وراء كل ذلك) (١)

وفى كتاب (العلم فى منظوره الجديد) يقول العالم ويلر :

«إن الحياة لم تأت اتفاقاً ، ومع إن الإنسان ليس مادياً فى مركز الكون فهو على ما يظهر فى مركز الغاية من خلقه» .

ويعلق مؤلفا الكتاب على ذلك بقولهما « والكون الذى يستهدف ظهور الإنسان يستلزم بداهة وجود عقل يوجهه ، لأن المادة لا تستطيع من تلقاء نفسها أن تهدف إلى أى شئ ، ومن هنا فالنظرة الجديدة تقود مرة أخرى إلى الاعتقاد بوجود عقل يوجه الكون بأكمله وجميع نوااميس الطبيعة وجميع خواص المادة إلى غاية ، ونحن نطلق على هذا العقل اسم الله » (٢)

وعن وفرة الأدلة الحسية على وجود ووحداية الله ترتبت قاعدتان أساسيتان :

الأولى : أن الإيمان لا يقبل بداءة إلا بشهادة ألا إله إلا الله . وما هذه الشهادة فى جوهرها إلا إقرار من صاحبها بأنه قد رأى بعينه وطالع بنفسه وهو فى وعى كامل أنه ليس ثمة إلا إله واحد .

(١) المرجع السابق - صفحة ١١١

(٢) (العلم فى منظوره الجديد) سلسلة عالم المعرفة - العدد ١٣٤

ورسول الله ﷺ يشير إلى الشمس فى رابعة النهار ويقول (على مثل ذلك فلتشهد وإلا فلا) .

فالشهادة فى منطق الإسلام - ليست شهادة مجازية أو اعتبارية بل هى شهادة حقيقية ، تعنى الاعتراف بأنه قد تمت معاناة هذه الحالة (وجود الله ووحدانيته) معاناة تامة لم يلابسها شك ولم يعتورها قصور ، كأنها الشمس فى رابعة النهار .

الثانية : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » ^(١) ولا شفاعة هنا بود ، ولا اعتذار بقرابة فالوالدان . . « وإن جامداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم . . فلا تطعهما . . » ^(٢) لأن الله . . « لا يغفر أن يشرك به » ولأن « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » ^(٣)

وأن « من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة » ^(٤)

القواعد هنا واضحة تماماً وصارمة ، لا قبول لأنصاف الحلول ، فالإقرار بوحدانية الله وتفرد بالخلق والأمر إن لم يكن نقياً وخالصاً رد على صاحبه وألقى فى النار ، فليس من المعقول -

(٢) سورة لقمان - آية ١٥

(٤) سورة المائدة آية ٧٢

(١) سورة النساء - آية ٤٨

(٣) سورة الحج - آية ٣١

لذى عقل وسمع وبصر - أن ينسب الفضل فى الخلق والإيجاد كله أو بعضه لبشر أو لغيره من المخلوقات التى قال الله فيها وفيهم «واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً»^(١)

وحتى فيما يتعلق برسل الله فقد صيغت القاعدة ذاتها بطريقة أكثر تشدداً ، يقول تعالى مخاطباً رسوله الكريم «ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين»^(٢)

هذا الحسم فى رفض الإشراك بالله مرده أن وجود الله ووحدانيته لا يستدل عليهما بالفطرة وحدها بل بما أوتى الإنسان من خواص ، فبتلك الخواص المتاحة يستطيع المرء أن يعلم أنه لا بد من مبدع لهذا الكون المتراعى ، وأن تهيئة الأرض لسكنى البشر ومعيشتهم على هذا النحو المتكامل لا بد له من منظم ، يستطيع الإنسان بحواسه وحدها أن يعي أن خلق السموات والأرض لم يتم بصدفة تهيأت فأوجدت ، أو بطبيعة تخبطت فأبدعت ، إنما تم ذلك كله بالحق وبالقدرة ، بالحكمة وبالتدبير ، لذلك فعندما جادل أقوام فى وجود الله ووحدانيته وقالوا لرسولهم «إننا كفرنا بما

(١) سورة الفرقان - آية ٣

(٢) سورة الزمر - آية ٦٥

أرسلتم به وأنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب»^(١) تعجب الرسل
لعجز القوم عن الاستدلال بحواسهم على هذه البديهة وردوا
باستنكار «أفى الله شك .. فاطر السموات والأرض ..»^(٢)

(٢) سورة إبراهيم - آية ١٠

(١) سورة إبراهيم - آية ٩

كيف يؤمن الإنسان بدنيا الغيب

البعث - الحساب - الجنة والنار

يشهد التاريخ قديماً وحديثاً أن البشر قد احتفظوا خلال مراحل تطورهم المختلفة بأحاسيس ثابتة عن وجود حياة أخرى بعد هذه الأولى ، وأنه قد كان لتلك الأحاسيس أثرها على فكرهم وتديبرهم الدنيوى ، وأن ارتباط هذه الأحاسيس بالإنسان البدائى الذى لم يكن قد اخترع شيئاً على الإطلاق ليؤكد أنها لم تكن من اختراعه ، كما أن صمودها حتى فى عصر ازدهار العلم للدليل على أنها لم تكن ضرباً من الأوهام بل هى أحاسيس صادقة تعبر عن حقيقة أكبر من قدرات البشر وفوق طاقاتهم ، ولكن ذلك لا يمنع من الإقرار بأنها بقيت بلا دليل مادى يؤيدها ، ومن ثم تعرضت للإنكار والرفض ، وهذه درجة تخرج الإنسان من دائرة الإيمان ، أو للشك والتساؤل ، وتلك درجة يسلك الإنسان فيها سبيل الباحثين عن الحقيقة أو المتطلعين إلى اطمئنان القلوب .

فلقد انتهى تطور العلوم الحديثة إلى ما سبق أن قرره القرآن

الكريم من أن وسائل البشر للعلم والمعرفة هي حواسهم وأن ما لا يخضع لهذه الحواس لا يجوز - كقاعدة عامة - الإقرار بوجوده وإن المعاينة وحدها هي التي تورث اليقين .
وفى تفسير قوله تعالى (كلا لو تعلمون علم اليقين) يقول الأستاذ الإمام محمد عبده :

والجددير بأن يسمى علماً هو علم اليقين ، أى العلم الذى هو من أفراد اليقين ، واليقين هو الاعتقاد الذى يطابق الواقع عن عيان أو دليل صحيح ، مقدماته بديهية أو منتهية إلى البديهيات بحيث يستحيل تغييره ، والنفس إذا ملكت هذا النوع من العلم ملك هو إرادتها وعاد المصرف لها فى شئونها .

كما يقول فى تفسير قوله تعالى «ثم لترونها عين اليقين» أى لترونها رؤية هي اليقين نفسه . وعلم العيان والملاحظة من أفراد اليقين يسمى عين اليقين لأنه هو الذى تنتهى إليه جميع العلوم اليقينية لأن العلم البرهاني إن لم ينته إلى علم عيانى لا يعد يقيناً^(١)

فعلم الإنسان بما يقع فى نطاق حواسه ليس كعلمه بما يقع خارج هذا النطاق ، وفى قصة سليمان النبی مع الهدهد ما يؤيد ذلك . لقد غاب الهدهد ثم عاد يقول «أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأً نبأً يقين»^(٢) أيقن الهدهد إذ سمع ورأى ، أما سليمان الذى لم ير فقد شك - وهو نبى - فى القصة وقال «سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين»^(٣)

(١) تفسير جزء عم . للأستاذ الإمام محمد عبده

(٢) سورة النمل - آية ٢٧

(٣) سورة النمل - آية ٢٢

ولرسول الله ﷺ حديث حاسم فى هذا الأمر يقول فيه «ليس
الخبر كالمعاينة» .

ولأن البعث والحساب والجنة والنار لا يمكن أن تكون محلاً
للمعاينة ، لذلك ففى مجال إثباتها اكتفى القرآن الكريم بالأدلة
المنطقية ، فبعث الخلق بعد الموت لا يزيد على إحياء الأرض بعد
إجذابها وبوارها كما فى قوله تعالى «فانظر إلى آثار رحمة الله
كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل
شئ قدير» ^(١) والذى برأ الوجود وأنشأه من العدم لا يعجزه أن
يعيده بعد فناؤه ، بل إن ذلك أيسر وأهون ، كما فى قوله تعالى
«وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه» . ^(٢)

لكن الخط الأساسى فى هذا الصدد أكدته آيات كثيرة تتحدث
عن (الذين يؤمنون بالغيب) أى بما لا دليل حسى على وجوده ،
وفى تفسير الطبرى عن سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة فى قوله
تعالى «الذين يؤمنون بالغيب» قال : آمنوا بالجنة والنار والبعث
بعد الموت ويوم القيامة وكل هذا غيب .

فسواء اقتنع الإنسان بالأدلة المنطقية أم لم يقتنع فعليه أن يسلم
بأن البعث والجزاء والجنة والنار غيب ، وأن عليه أن يؤمن
بوجودها دون دليل حسى .

(٢) سورة الروم - الآية ٢٧

(١) سورة الروم - الآية ٥٠

فكيف يؤمن الإنسان بعالم لم تطلع على مشاهدته عين ولم تستمع لما يتردد فى جنباته أذن ، ولم يتيسر رصده بوسيلة من وسائل البشر الحسية ؟

إن قيل يسترشد بعقله جاءت الإجابة بأن العقل كالقاضى إن لم تقدم له دعوى مفصلة وأدلة بينة استحال عليه إصدار حكمه أو إبداء رأيه ، فإعمال العقل هنا يمكن أن يؤدى إلى إنكار الغيب لا إلى إثباته .

ولعل أبعاد هذا الموقف وأهميته تتضح أكثر عندما نستعيد حديث رسول الله ﷺ «ليس الخبر كالمعاينة» ثم نلاحظ أن التسليم بوجود «دنيا الغيب» بما تشتمل عليه من ترغيب وترهيب هو الذى يضبط فى الغالب تصرفات البشر ويردعهم عن البغى والعدوان ، فضلا عن أنه هو المحك الحقيقى للكفر والإيمان . فالذين أعلنوا إيمانهم بوجود الخالق وقال الله فيهم «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله» لهم بعد ذلك فى الإيمان بالغيب رأى آخر ، فهم يقولون «ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر. . .» ^(١) ثم إنهم تبادوا ف «أقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت. . .» ^(٢)

وسواء تجنبنا الغلو فى الإنكار المفضى إلى الكفر ، أو شككنا فى صحة الاعتماد على الخواص كوسيلة وحيدة لبلوغ اليقين

(١) سورة الجاثية - آية ٢٤

(٢) سورة النحل - آية ٣٨

فإن مشكلة الإيمان بوجود الغيب لن تختفى بل ستظل قائمة حتى بالنسبة لأكثر الناس تديناً . فقد وهب الله الإنسان حواساً عن طريقها يوقن ويتأكد . وفطره سمياً بصيراً يسمع ويرى فيتثبت ويتحقق . وهذه الحواس التي هي آلاته للرصد - مصممة أساساً للتعامل مع الماديات ، وهي قد اختزلت معارفه في قواعد محددة تدور في إطار المحسوسات ، إن أفادت يقيناً بالعالم المرئي المشهود فإنها لا تفيد إلا إنكاراً لعالم الغيب الخفى المستور .

ولقد استعرضنا من قبل هذه المشكلة من وجهة نظر المنكرين الذين قال شاعرنا المجهول على لسانهم (حديث خرافة يا أم عمرو) كما اطلعنا على وجهة نظر الصفوة المختارة (الأستاذ الإمام عبدالحليم محمود) وأصحاب التجارب الخاصة (الغزالي) الذين قدموا لنا حلولاً ، وإن كانت فردية فإنها أيضاً ميتافيزيقية ، لأن الرؤية التي تحققت لهم - إن صح الادعاء بوجود رؤية - كانت سمواً روحانياً ذاتياً فوق طاقة البشر .

ويبقى السؤال : ما هو موقف الأديان من هذه المشكلة ؟

وكيف عاجتها بالنسبة لعامة البشر ؟

الواضح أن العقائد السماوية قد استوعبت هذه المشكلة منذ المراحل الأولى للنوحى ووارنت بين اعتبارات فرض الإيمان بالغيب على بنى الإنسان وبين قدراتهم الحسية ، وافترضت أن أية محاولة

لإثبات الغيب فى حدود قوانين ومسلمات عالم الشهادة لن تكون إلا كالنقش على الماء ، وهو ما فرض فى واقع الأمر تحديد مجال البحث فى إطار مخالفة تلك القوانين والمسلمات ، وذلك بإجراء خارق يتمثل فيه الخروج على قوانين البشر المعروفة لديهم المستقرة بينهم ، وفى ذلك تكمن العلة فى تسليح الرسل بمعجزات يدللون بها على صحة دعواهم أن هناك (بعث وحساب وجنة ونار) أما وجود الله ووحدانيته فلا شأن للمعجزة بهما ، تأمل ما فى السماء والأرض يكفى لإثباتهما ، وهو - هذا التأمل - فى دلالة على وجود الله وتفرد بالخلق والأمر يفوق فى أثره ما يمكن لأى معجزة أن تحققه .

والمعجزة - حسب التعريف الشائع - عمل خارق يجرى على يد الرسول لا يقدر على الإتيان بمثله بشر . وهو تعريف صحيح لكنه يركز على شكل المعجزة المحدود ويعرض عن مدلولها المطلق ، ولنأخذ عصا موسى هنا كمثال .

فلقد عرف الإنسان العصا وتعددت أوجه انتفاعه بها ، وطبقاً لمعارفه فهى لا تتحول إلا إلى حطام إن تهشمت أو رماد إن احترقت ، فعندما يأتى موسى عليه السلام ويقول : إنه رسول من عند الله وإن للمتقين فى الآخرة ثواب عظيم وللمكذبين عذاب أليم ، ثم يطرح تأييداً لدعواه عصاً ميتة تنقلب ثعباناً حياً فالمرسل إليهم يواجهون حدثاً يعجزون عن الإتيان بمثله فى

نطاق ما اعتادوه من قوانين وما اضطردت عليه حياتهم من نظم .
وعند هذا الحد - أى النظر إلى المعجزة من الخارج - يقف تعريف
العلماء لها ، فى حين أن المعجزة بمخالفتها للسنن الثابتة لعالم
الشهادة إنما تحمل فى طياتها دليلاً معتبراً على وجود عالم آخر له
إمكانات غير محدودة وطاقات غير مقيدة يعجزون عن استيعابه ،
عجزهم عن استيعاب حدث المعجزة الذى اقتحم أسماعهم
وأبصارهم ، وعليهم أن يسلموا بوجوده تسليمهم بالمعجزة التى
مازالت غرابتها تتراى فى مخيلتهم . فمعجزات الرسل هى
الوسائل التى طرحت لإقناع البشر بوجود عالم الغيب غير
المشهود ، وهى تتحدى مشاعرهم بأمر واقع جديد ، يؤكد ما
سطر فى فطرتهم عن وجود عالم آخر غير عالمهم ، له نواميسه
التي لا تستوعبها عقولهم ، وقدراته التي لا تطيقها حواسهم ،
وهى تقدم لهم الدليل على ذلك فى عمل خارق يعجزون عن
إدراجه تحت أى من قوانينهم كوسيلة لإقناعهم :

أولاً : بوجود عالم غيبى بدليل حسى

ثانياً : مغايرة عالم الغيب وقوانينه لعالم الشهادة وقوانينه

لكن المعجزة لا تقوم على رؤوس الناس ليل نهار ، بل إنها لا
تقدم لهم كل آن ^(١) وفى أوقات غيابها يروق للبعض أن يتبسجح

(١) باستثناء القرآن الكريم فهو معجزة قائمة دائمة

كما فعل فرعون وملأه ، إذ بعدما رأوا الآيات قالوا «ما هذا إلا
سحر مفترى . . » ^(١) ثم إن هناك طوائف مردت على الجدل بلا
دليل واحترفت الجحود دون حجة ، وفيهم نزل قوله تعالى «ولو
فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما
سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون» ^(٢)

وإذا أضفنا إلى ذلك أن أثر المعجزة يرتبط عادة بوجود الرسول
وبحياته ، فإنه يتعين الإقرار بأن الإحساس الفطري بوجود عالم
الغيب سوف يفتقد من جديد - بعد وفاة الرسول - وتعاقب
الآجيال ذلك الدليل الذى اكتسبه حين من الدهر إبان حياته ،
ويكون على من يرجو لقاء ربه أن يعود إلى زمرة الذين (يؤمنون
بالغيب) أى بوجود ما لا دليل على وجوده .

لذلك فما من بشر مهما علا فى الإيمان قدره وعظم فيه شأنه
إلا ومسه طائف من الشيطان تمكن منه فجري - لحين من الوقت
- مجرى الدم فى العروق ، فتساءل .

أموت ثم بعث ثم نشر ؟

وفى هذا الموقف يسقط أقوام وهم يرددون مع الشاعر قوله
(حديث خرافة يا أم عمرو) ومن هذا الموقف ينطلق أقوام وقد
عمر اليقين قلوبهم فيجيبون إجابة الواثق المطمئن (نعم إنا

(١) سورة القصص - آية ٣٦

(٢) سورة الحجر - آية ١٤ ، ١٥

لمبعوثون ، وإنا لمدينون) لكن ذلك لا يتأتى إلا بفضل من الله ،
أو كما يقول الغزالي «بنور يقذفه الله فى القلب» أما بالنسبة لعامة
المؤمنين فهناك إشارات كثيرة إلى ما يجتاح نفوسهم من قلق ،
يقول ابن تيمية (وكثيراً ما يعرض للمؤمن شعبة من شعب النفاق
ثم يتوب الله عليه ، وقد يرد على قلبه بعض ما يوجب النفاق ،
ويدفعه الله عنه ، والمؤمن يبتلى بوساوس الشيطان ، بوساوس
الكفر التى يضيق بها صدره كما قالت الصحابة : يا رسول الله
إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لئن يخر من السماء إلى الأرض أحب
إليه من أن يتكلم به . .) ثم يقول (ولابد لعامة الخلق من هذه
الوساوس) (١)

أما ابن القيم فيقول . . قال ابن عباس لأبى زميل وقد سألته
«ما شئ أجده فى صدرى» ؟ قال : ما هو ؟ قال : قلت والله
لا أتكلم به . قال ، فقال لى : أشئ من شك ؟ قلت : بلى .
قال لى : ما هنا من ذلك أحد ، فإذا وجدت فى نفسك شيئاً فقل
هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم (٢)

فالشك فى وجود دنيا الغيب يمكن أن يقع ، والتساؤلات
حولها يمكن أن تثور دون أن يخرج الإنسان بذلك عن دائرة

(١) من كتاب (الإيمان) لابن تيمية . طبعة أنصار السنة المحمدية - صفحة ٢٤١
وما بعدها

(٢) زاد المعاد لابن القيم . الجزء الثانى - صفحة ٣٥

الإيمان، لأن الشك هنا - حسب تعبير ابن عباس - يعتبر حالة . . ما نجا منها أحد ، والحديث الذى أورده البخارى فى باب الإيمان يوضح ما اشتمل عليه الإسلام من يسر فى هذا الجانب . يقول : عن سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول الله تعالى «أخرجوا من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون فى نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى جانب السيل .

ولن نقف على وجه الحق فى قوله تعالى «إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة» وبيان رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل «أخرجوا - من النار - من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان» ما لم نصرف ما جاء بالآية الكريمة إلى اختصاصه بجانب الإقرار بوحداية الله وتفرد بالخلق، ونصرف ما جاء بالحديث الشريف إلى اختصاصه بجانب الإيمان بالبعث والجزاء ، يتأكد هذا المعنى عندما نلاحظ أن الشرك لا يمكن أن يلحق إلا جانب الإيمان بوجود الله ووحدانيته ، أما الإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار فلا يمكن أن يعتوره شرك ، لكن يمكن أن يلابسه شك .

وكثرة الأدلة الحسية على وجود الله ووحدانيته أوجبت أن

يصدر الإيمان هنا عن اقتناع حقيقى بالرؤية . ومن يتردد فى ذلك فقد حرم الله عليه الجنة . وانعدام الأدلة الحسية على وجود دنيا الغيب أتاحت للإنسان أن يتساءل وأجازت له فى حدود معينة أن يتشكك ، وسفحت لإيمانه أن يقوى ويضعف وأن يزيد وينقص ومع ذلك يكون له فى عفو الله نصيب وفى رحمته متسع حتى لو بلغ إيمانه بوجود الغيب مثقال حبة من خردل ، وهو قدر يكفله تجنب الإصرار على إنكار الغيب .

وذلك كله بالنسبة لأحاد الناس وعامة الخلق

فهل يقبل مثله من رسل الله ؟

قد تتعذر الإجابة على هذا السؤال بالإيجاب ، فمصادقية الرسل لتبليغ الرسالة تستعارض مع إيمان يقوى ويضعف ويزيد وينقص .

وكيف يتسنى لهم إقناع الآخرين بوجود ما هم أنفسهم غير موقنين من وجوده ؟

وإذا كانت الإجابة بالنفى ، فكيف يكتمل إيمان الرسل بدنيا الغيب ويصل لدرجة اليقين ؟

ولنستبعد من مجال البحث تجارب (الصفوة المختارة) التى أشار إليها الدكتور عبدالحليم محمود ، وأزمات أصحاب (الحلول

الخاصة) الذين كان الغزالي من بينهم ، فإقناع العامة يجب أن يستند إلى مقاييس عامة لا إلى تجارب ذاتية خاصة .

فهل كان لرسول الله طبيعة مختلفة وإمكانات غير عادية أتاح
لهم الاطلاع على ما تم حجبها عن سائر البشر ؟
ذلك ما نسعى للإجابة عليه في الصفحات التالية

طبيعة المرسلين وكيفية إيمانهم بالغيب

اقتضت حكمة العليم بخلقه ، الخبير بهم أن يكون الرسل إلى البشر منهم ومثلهم ، يتكلمون لغتهم ويشاركونهم حياتهم ، يقول جل شأنه «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليعين لهم . . » ^(١) والحكمة من ذلك غير خافية ، فجوهر الرسالة هو اقتداء المرسل إليهم برسولهم ، فإذا لم يكن الرسول منهم ومثلهم استحال إلزامهم امتثال الطاعة له أو حثهم على الاقتداء به .

ويبدو أن بشرية الرسل كانت مشار اعتراض المرسل إليهم على الدوام ، فالرد على دعوى الرسل المنطقية كما يحكيها قوله تعالى في سورة إبراهيم «أفئ الله شك فاطر السموات والأرض . . » ^(٢) لا يكون بدراسة القضية المطروحة دراسة موضوعية ، بل بإثارة اعتراض جانبى من قبيل ما يعرفه رجال القانون بأنه «دفع شكلى» «قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا . . » ^(٣) وهنا لا يعترض الرسل على بشريتهم ، يقولون «إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده . . » ^(٤)

(٢) سورة إبراهيم - آية ١٠

(٤) سورة إبراهيم - آية ١١

(١) سورة إبراهيم - آية ٤

(٣) سورة إبراهيم - آية ١٠

وقد اهتم كتاب الله بهذه الدعوى ، وفى ذلك نقرأ قوله تعالى
 «وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله
 بشراً رسولا» ^(١) ويجيبهم «قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون
 مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا» ^(٢)

كذلك قوله تعالى حكاية عن المعاندين «وقالوا مال هذا الرسول
 ياكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه
 نذيراً» ^(٣) ويكون الرد عليهم «وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا
 إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق . . » ^(٤)

ولو رجعنا إلى الآية الأخيرة من سورة الكهف لوجدنا القاعدة
 العامة التى تحدد طبيعة رسل الله ، وذلك فى قوله تعالى موجهاً
 رسوله الكريم «قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى . . »

فلرسل الله كما تبين الآية الكريمة وغيرها صفتان :

الأولى : بشرية يثبتها قوله تعالى : «قل إنما أنا بشر» . .
 وبمقتضى هذه الصفة يتساوى الرسول مع غيره فهو يجوع ويشبع
 ويحزن ويفرح ، ويغضب ويرضى و«مثلكم» تبين أن الرسول قد
 لا يكون أقوى قومه جسداً ولا أحدهم ذكاء ، ولا أكثرهم مالا ،
 كذلك فهى تؤكد أنه لا امتياز للرسول بوسائل غير ما أوتى البشر،

(٢) سورة الإسراء - آية ٩٥

(٤) سورة الفرقان - آية ٢٠

(١) سورة الإسراء - آية ٩٤

(٣) سورة الفرقان - آية ٧

فما لهم من آلة للبصر غير أعينهم ، وما لهم من سبيل للسمع غير آذانهم ، وهم يولدون - كغيرهم - بلا علم ، ثم يبدأ جمعهم للحقائق والمعارف فى حدود ما تطيقه حواسهم وما تستوعبه أفئدتهم وما يخوضونه من تجارب وأحداث .

أما الصفة الثانية لرسول الله فهى تلك التى يكتسبونها من اتصال الوحي بهم ، وهو اتصال يتحقق لهم به الامتياز على غيرهم من البشر .

فما هو الوحي ؟

وما هى الإمكانيات التى يتيحها للرسول ؟

فها نحن حيال بشر مثلنا ، هو فى الغالب مكتمل الرجولة ، ناضج العقل سوى التفكير ، وهو مشغول كغيره فى حل مشكلات الحياة المتتابعة كموجات البحر ، ثم إذ بطارق يضرب عليه الباب ، ليس إلى عالم الشهادة ينتهى ، بل من عالم الغيب أتى ، وهو يلقي فى روعه أن الاختيار قد وقع عليه ليكون رسولا إلى الناس يبلغهم رسالات ربه ، ثم يختفى من حيث جاء ، وفى اللحظات التالية ينتبه الرسول ليجد نفسه وحيداً ، قد فارقتة صورة الملك وضوته ، لكن كلماته تعاود الرسول يجدها معارف حية تنبض فى فؤاده قد سطرها الوحي بحروف من النور .

وفى تعريف الوحي الذى يحدث ذلك التأثير الحاسم يقول

الأستاذ الإمام محمد عبده (وقد عرفوه شرعاً أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه . أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص فى نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل أو بغير صوت ، ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور» (١)

وعن كيفية الوحي يعقد المفكر الإسلامى مالك بن نبي بحثاً هاماً فى كتابه «الظاهرة القرآنية» . . وهو بعد أن يورد التعريف السالف للوحي يقول (ولقد بقى فى هذا التعريف الذى أسهب الأستاذ الإمام فى تحديده بعض الغموض فيما يتعلق بتفسير اليقين عند النبي . والواقع أننا فى الحالة التى لا يكون الوحي فيها منتقلاً بطريقة محسوسة - مسموعة أو مرئية - سبتنع فى تعريف الوحي تعريفاً ذاتياً محضاً ، إذ إن النبي فى التحليل الأخير لا يدري بصفة موضوعية كيف جاءته المعرفة ، وهو يجدها فى نفسه مع تيقنه بأنها من عند الله ، إن فى ذلك تناقضاً واضحاً يخلع على ظاهرة الوحي كل خصائص المكاشفة ، ولكن هذه - كما يجب أن نكرر - لا تنتج يقيناً مؤسساً على إدراك (٢) وعلى ذلك فإن الوحي عند الأستاذ مالك هو (المعرفة التلقائية والمطلقة لموضوع لا يشغل التفكير وأيضاً غير قابل للتفكير) (٣)

(٢) الظاهرة القرآنية - صفحة ١٧١

(١) رسالة التوحيد - صفحة ١٠٩

(٣) المرجع السابق - صفحة ١٦٨

واستكمالاً للدراسة نتابع مع الأستاذ مالك استعراضه لبعض جوانب الظنون التي يمكن أن تساور النبي حول ظاهرة الوحي وانفعالاته حيالها وذلك إذ يقول :

«هل سمع ورأى حقاً ؟ أو أن هذا الحادث السمعى البصرى لم يكن سوى سراب باطنى ، انبعث فى نفسه تحت تأثير انفعال مؤلم قاده إلى شفا الهاوية ؟ ألم تخدعه جوارحه المنفعلة ؟ .. لقد كان يجب أن تشور هذه الأسئلة من أول وهلة فى ذهن النبى ، حتى قبل أن يثيرها النقد فى عصره أو عصرنا»^(١)

والواقع أن الدراسة المطولة التى أجراها الأستاذ مالك على ظاهرة الوحي واقتناع النبى بها لم تكن من قبيل المران العقلى ، فالأقرب إلى التصور هو أن النبى - بعد اللقاء الأول بالوحي - يخضع الحدث كله للدراسة والتمحيص فى ضوء مقاييسه الخاصة ومعارفه العامة قبل أن تتعقد إرادته على الانقياد له ، ومن ثم فكل التساؤلات التى أثارها الأستاذ مالك حول شكوك المرسلين هى من قبيل الاحتمالات الواردة ، وقد وضع رحمه الله مقاييسين يتغلب بهما النبى على شكوكه ويتخطى أزمته :

المقياس الأول : ظاهرى ، فالاختلاط أو «الهلوسة» لا يمكن أن تؤدى أصواتا كما يفعل الوحي ، ثم إنه - أى الوحي -

(١) المرجع السابق - صفحة ١٧٧ ، ١٧٨

يتمثل فى صورة مادية ، وتصاحبه مظاهر حسية يشعر بها الآخرون فينتفى بذلك احتمال كون الوحي مجرد سراب باطنى .

المقياس الثانى : عقلى ، فالأفكار الموحى بها بما تتضمنه من معلومات مجهولة من النبى ومن الوسط الذى يعيش فيه والتي تقلب المعرفة الضئيلة للنبى المحاطة بسياج مزدوج من الجهل العام والامية الخاصة ، تؤكد له أن مصدر هذه الأخبار المنزلة يقع خارج ذاته وخارج مجتمعه كما أن الوحي لا يوافيه طوع إرادته ، فلقد بدا له عصياً لا يمكن أن يخضع له كما لا تخضع له أفكار الآخرين وكلماتهم (١)

وعند هذا الحد (اقتناع الرسول بظاهرة الوحي) توقف بحث الأستاذ مالك ، ورغم ذلك فإنه تجاوز - فيما أتى به - المحذور، فالفكر الإسلامى كان قد أثر السلامة وتجنب الخوض فى كل ما يتصل بالجوانب الشخصية والنفسية للرسول ، وذلك فيما يبدو استناداً إلى افتراض غير صحيح بأن للأنبياء طبيعة خاصة ، وأن قلوبهم قد ارتعت إيماناً لحظة تكليفهم بالرسالة ، وأن إسلامهم الوجه لله قد تم جبراً دون أن يكون لهم جهد فيما بلغوه أو ما اكتسبوه ، فى حين أن الأمر ليس كذلك ، والأنبياء ليسوا على تلك الدرجة من السلبية، فلإرادتهم نصيب فى تشرب ما يسبغ عليهم من إيمان وفى الاقتناع بما يوحي به من معتقدات

(١) المرجع السابق - صفحة ١٦٧ الى ١٩٩

ولولا ذلك لما كان لهم من فضل ، فعقيدة الخالق الواحد هي من الأفكار المقبولة عقلاً قبل أن تكون مفروضة شرعاً ، وما نحسب أن وحياً بتعدد الآلهة يمكن أن يلقي قبولا لدى أى عاقل مهتماً أيدته المعجزات .

فإذا جاء الأستاذ مالك وخالف ما استقر عليه الفكر الإسلامى وسلط الأضواء على الانفعالات الشخصية للرسول بعد اللقاء الأول بالوحى ، وأوضح أن التساؤلات التى تثور حوله فى البداية هى التى تؤدى فى النهاية إلى الاقتناع به ، فقد كان عليه - رحمه الله - أن يلاحظ أن درجة اليقين التى يصل إليها اقتناع النبى سوف تقف عند ظاهرة الوحى لا تتعداها ، وبالتالي فقد كنا نتمنى لو أنه تابع انطلاقته وتعرض لكيفية اقتناع الرسول بالعالم الذى ينتمى إليه الملك حامل الوحى ولما يرد فى رسائله عن الثواب والعقاب ، لأن حاجة النبى إلى معايير يقيم عليها اقتناعه بعالم الغيب هى بالقطع أشد من حاجته إلى معايير يقيم عليها اقتناعه بظاهرة الوحى . . وعلى ذلك ، فإن السؤال عن أثر الوحى على علم الرسول ، وبالتالي اقتناعه بالغيب مازال يبحث عن إجابة .

ولنفرق هنا ابتداء بين :

العلم بما فى صحف الغيب ، أى معرفة ما حدث فيما مضى وما سوف يحدث فيما هو آت ، وهو الذى إليه الإشارة فى قوله

تعالى على لسان رسوله (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من
الخير وما مسنى السوء...) (١)

وبين الغيب الذى نعينه فى هذه الدراسة وهو عالم ما بعد
الموت من بعث وحساب وجنة ونار .
ولنخص كلا منهما ببيان على حدة .

(١) سورة الاعراف - آية ١٨٨

اثر الوحي

على علم الرسل بما فى صحف الغيب

عن علم رسل الله بما فى صحف الغيب هناك نصوص صريحة
تحدد قدرتهم على الإحاطة بما فيها ، وهى تشتمل على قاعدة
عامة وإستثناء .

أما القاعدة فقد أكدتها آيات عديدة منها :

«وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو . . .» ^(١) وكذلك «وما
كان الله ليطلعكم على الغيب . . .» ^(٢)

وأما الاستثناء على هذه القاعدة فقد ورد مرة واحدة ، والآية
الكريمة التى قررته جاءت مباشرة بعد آية تؤكد القاعدة العامة ،
وذلك فى قوله تعالى « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً .
إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه
رصدًا » ^(٣) والغالب أن هذا الاستثناء يكون جزئياً ومحدوداً ،

(٢) سورة آل عمران - آية ١٧٩

(١) سورة الأنعام - آية ٥٩

(٣) سورة الجن - آية ٢٦ ، ٢٧

استناداً لقوله تعالى «ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء . . .»
ومن أمثلة ذلك قول صالح عليه السلام لقومه عندما عقروا الناقة
«فتمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب»^(١) ومن
أمثلته أيضاً ما أوحى به إلى محمد رسول الله ﷺ من انتصار
الروم على الفرس قبل اشتعال الحرب بينهما بسنوات ، وذلك في
قوله تعالى «الم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد
غلبهم سيغلبون . في بضع سنين»^(٢)

لكن أبرز حالات العلم بما في صحف الغيب هو ما جاء بآيات
سورة الكهف ، ولو أن الاختصاص بالعلم فيها لم يكن من
نصيب الرسول موسى ، بل كان للخضر عليه السلام^(٣)
الأول آتاه الله حكماً وعِلْماً واصطفاه على الناس برسالاته
ويكلامه ، أما الثاني فقد آتاه الله من لدنه علماً ، أى اختصاصه
بمعرفة بعض ما كان وما سيكون ، والتقيا :

«قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً .
قال إنك لن تستطيع معي صبرا»^(٤)

هكذا ومن البداية ظهر الفرق بين الرجلين ، فالمطلع منهما
على ما بصحف الغيب يعلم مسبقاً أن موسى لن يقدر ولن

(٢) أول سورة الروم

(١) سورة هود - آية ٦٥

(٣) اختلف المفسرون في شأنه ، فبعضهم على أنه عبد صالح وآخرون على أنه نبي

(٤) سورة الكهف - آية ٦٦ ، ٦٧

يصبر ، لكن موسى يعد بالصبر والطاعة وهو يعتقد أنه سيبصر
بوعده ويفى بوعده « قال مستجدي إن شاء الله صابراً ولا أعصى
لك أمراً »^(١)

وانطلقا ..

والآيات الواردة بعد ذلك من سورة الكهف ليست فى حقيقة
الامر إلا مقارنة بين العلم المستفاد من الحواس حتى بالنسبة
للأنبياء ، وبين العلم بما فى صحف الغيب المكتسب بالإفاضة من
الله كاستثناء خاص .

فعندما ركبا فى السفينة خرقها الخضر فاحتج موسى قال
« أخرجتها لتغرق أهلها .. »^(٢)

فلما عاودا سيرهما لقا غلاماً فقتله الخضر فاعترض موسى ،
قال « أقتلت نفساً زكية بغير نفس .. »^(٣)

ثم إنهما مرا بقرية رفض أهلها أن يضيفوهما فعمد الخضر إلى
حائط متصدع فهدمه وأعاد بناءه ، فتعجب موسى لصنيع صاحبه
مع من أساءوا إليهم ورفضوا إطعامهم ، ولم يتمالك نفسه فقال
« لو شئت لاتخذت عليه أجراً »^(٤) وهنا أصبح الفراق بين الرجلين
أمراً مقضياً ، لكن الخضر أراد أن يبين لموسى فساد ما يمكن أن

(٢) سورة الكهف - آية ٧١

(٤) سورة الكهف - آية ٧٧

(١) سورة الكهف - آية ٦٩

(٣) سورة الكهف - آية ٧٤

تؤدي إليه الحواس ويوضح له أن النظر إلى الحدث في ذاته منفصلاً عن الماضي ومعزولاً عن المستقبل يؤدي في الغالب إلى أحكام خاطئة ، فما نراه شراً لنجزع له قد يكون سبباً لخير أعم وأبقى ، وما نحسبه خيراً نحتفى به قد يفضي إلى عواقب وخيمة وأحداث أليمة ، وفي ذلك تقص آيات سورة الكهف قول الخضر :

«أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا . وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا أن يبدلهما ريحهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً . وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك» (١)

فالقاعدة العامة أن رسل الله لا علم لهم بما في صحف الغيب وبعضهم أعلن ذلك :

نوح عليه السلام «ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب..» (٢)

ومحمد عليه الصلاة والسلام «قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب..» (٣)

(٢) سورة هود - آية ٣١

(١) سورة الكهف - الآيات من ٧٩ - ٨٢

(٣) سورة الأنعام - آية ٥٠

أما الاستثناء على هذه القاعدة فلا يتم إلا لحكمة يقدرها الله
 دونما اعتبار لرغبات الرسول أو تطلعاته ، فما يتاح له قد لا يكون
 ضمن دائرة اهتماماته ، وما يتلهف لمعرفته قد يظل بعيد المنال ،
 أما الملك حامل الوحي فهو الآخر مجرد مبلغ لا شأن له بشكل
 الرسالة أو مضمونها أو توقيتها .

وعلى ذلك فالوحي الذي يمتاز به الرسول على غيره من البشر
 لا يفتح له صفحات الغيب يطلع منها على ما يشاء ، وإنها إن
 كانت محظورة على عامة البشر فهي كذلك على سائر الرسل .

الوحي

على علم الرسول بما فى دنيا الغيب

مرة أخرى نواجه السؤال عن قدرة رسل الله على الاطلاع على دنيا الغيب ، بكل ما تشتمل عليه من بعث وجزاء وجنة ونار، بمعنى آخر : هل بعد اتصال الوحي بالرسول ترتفع أستار ذلك العالم وتتكشف لرسل الله معالمة كلها ، أم أنه يأخذ حكم العلم بما فى صحف الغيب فتكون القاعدة هى الحظر والاستثناء هو الإباحة ، أم أن لرسل الله - حسبما قرر الأستاذ الإمام محمد عبده - مرتبة خاصة يشرفون منها على الغيب ويكونون فيها على نسبة من العالمين : نهاية الشاهد وبداية الغائب ^(١)

فى تحديد الإجابة على هذه التساؤلات ، فلو رجعنا إلى القرآن الكريم والاحاديث الصحيحة لما وجدنا ما يثبت أن رسل الله قد اطلعوا أو كان لهم حق الاطلاع على عالم الغيب ، أو إنهم أشرفوا أو كان لهم حق الإشراف عليه ، فهو محظور عليهم كما هو محظور على غيرهم ، والقاعدة هنا صارمة وحادة لا استثناء

(١) راجع رأى الأستاذ الإمام صفحة (٢١) حيث أوردناه كاملاً وأرجأنا مناقشته آنذاك .

فيها ولا محاباة ، ولم يقل بغير ذلك أحد ، أما ما جاء به منفرداً الأستاذ الإمام محمد عبده فإنه لا يعدو أن يكون تركيبات لغوية جيدة السبك لم يقم عليها أى دليل ، وربما يكون قد صاغها تحت تأثير إحساس مفترض بأن تبليغ رسل الله للرسالة لا يتم بإيمان دون حد اليقين ، ولأن كافة اتصالات الوحي بالأنبياء مسجلة فى كتب العقائد ، وهى لا تحتوى على ما يشير إلى أن الاطلاع على الغيب قد أتيح لهم سواء كقاعدة أو كاستثناء فقد تخلص الأستاذ الإمام من المأزق بأن اختار لهم مكاناً علوياً يشرفون منه على الغيب ويكونون فيه على نسبة من العالمين ، نهاية الشاهد وبداية الغائب ، لكن ذلك ليس صحيحاً ، فالسبل إلى عالم الغيب إن كانت موصدة فى وجه عامة البشر فإنها كذلك بالنسبة لسائر الرسل ، فحواسهم كبشر لم تنفعهم والوحي الذى يمتازون به لم يسعفهم . . ويضعنا ذلك من جديد فى مواجهة السؤال الآتى :

إذن كيف يصل إيمان الرسل بالغيب إلى حد اليقين أو عين اليقين ؟ أم إنهم قد حذروا من نار وبشروا بعنة وهم غير موقنين من وجودها ؟

قد يقول قائل : إن يقين النبي يكتمل بالمعجزة التى تجرى على يديه ، فطالما أن المعجزة - على ما سلف بيانه - هى الوسيلة المختارة لإقناع المرسل إليهم بوجود عالم آخر ، فهى من باب أولى صالحة لإقناع الرسول نفسه ، لكن ذلك ليس صحيحاً ، إذ

يلزم التفرقة بين :

البشر بصفة عامة : وهؤلاء لا يتصل الوحي بهم وتقدم لهم المعجزة كدليل على صدق دعوى الرسول ، فعليهم الامثال والطاعة ، ومثقال حبة من خردل من الإيمان هنا ينجيهم من عذاب النار يوم القيامة .

ورسل الله : وهؤلاء لا يعقل أن يكون إيمانهم بالغيب كإيمان المرسل إليهم دون حد اليقين ، كما أن اتصال الوحي بهم يزيد بالقطع من تشوقهم إلى مزيد من الرؤية والاطلاع .

ولعل ما أورده الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى «**وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحمى الموتى**» ما يوضح أن أثر المعجزة يقتصر على المرسل إليهم ، أما الرسول فهو فى حاجة إلى دليل خاص به ، وذلك إذ يقول :

الوجه الخامس : ما خطر ببالي قلت ، لاشك أن الأمة كما يحتاجون فى العلم بأن الرسول صادق فى ادعائه الرسالة إلى معجز يظهر على يديه ، فكذلك الرسول عند وصول الملك إليه وإخباره إياه بأن الله بعثه رسولا ، يحتاج إلى معجز يظهر على يد ذلك الملك ليعلم الرسول أن ذلك الواصل ملك كريم لا شيطان رجيم ، وإذا كان كذلك فلا يبعد أن يقال إنه لما جاء الملك إلى إبراهيم وأخبره بأن الله تعالى بعثك رسولا إلى الخلق طلب

المعجزة فقال « رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » على أن الآتى ملك كريم لا شيطان رجيم (١)

فالرسول بشر مثلنا ، يمارس حياته فى حدود ما تتيحه حواسه . لكن ملك الوحي يلم به فجأة ، فيستسلم لتأثيره القاهر ، وتتلاشى صفته البشرية لتسود صفته النبوية طوال مخالطة الوحي له ، لكنه ما أن يفصل عنه حتى تعود صفته البشرية من جديد فينطق بما يجده منقوشاً فى صدره من معارف لم يكن لحواسه شأن فى اكتسابها ولم يكن لإرادته دور فى تحديدها ، وعندئذ قد تتوافر مبررات معقولة لاحتمال أن يتساءل النبى ، لا عن ظاهرة الوحي - التى أوضح لنا الأستاذ مالك كيفية اقتناعه بها - بل عن كل هذا الذى يأتى به الوحي عن البعث والحساب والجنة والنار . فهو بشر ، لا يتحقق له العلم اليقيني إلا بوسائله الحسية .

وهو رسول ، عليه اقناع المرسل اليهم بوجود الغيب ، وافتقاده هو نفسه للدليل المادى على ما يدعيه ويلح عليه من شأنه إضعاف موقفه ، والوحي الذى يوافيه ليس كما يبدو للوهلة الأولى امتيازاً فذاً يتيح له العلم بما يشاء ، فهو يأتى ليبليغ لا لينصت ، وليقول لا ليقال له ، وحضوره يتم فى الغالب لإرساء مبادئ العبادات والمعاملات وتحديد الحلال والحرام ، أما هموم الرسول الشخصية

(١) تفسير الفخر الرازى . الجزء الثانى - صفحة ٢٤٢

واهتماماته الذاتية فعليه أن يتحملها وحده كبشر ، وأن يواجهها بما
أتيح له من قوى وحواس .

فهل اقتنع رسل الله بما يصلهم من أنباء عن الغيب ؟

أم إنهم قد تمردوا على عجز حواسهم وتجاوزوا إغراض الوحي
عن مناجاتهم ، وتطلعوا - من جانبهم - ونشطوا - بإرادتهم -
للفاذا من بين أستار الغيب ، ليس فحسب تثبيتاً لإيمانهم به بما
يتلاءم ومكانتهم ، بل ودعماً لمصداقيتهم أمام المرسل اليهم .

قد تتعذر الإجابة على ذلك ما لم نرجع إلى كتاب الله
نستعرض من خلاله قصص الأنبياء حسبما بيّنتها آياته الكريمة ،
ابتداءً بإبراهيم عليه السلام وانتهاءً بأصحاب الرسالات الثلاث
الكبرى .

إبراهيم عليه السلام

وردت قصة إبراهيم عليه السلام شبه كاملة في أكثر من سورة هي «البقرة - الأنعام - مريم - الأنبياء - الشعراء - الصافات - الزخرف - الممتحنة» وقد عنيت كل سورة بناحية خاصة من القصة أو اهتمت بالتركيز على جانب معين منها ، له بالهدف العام للسورة صلة .

وباستعراض عدة آيات من بعض السور فإنه يمكن الإمام بالجزء الذى يعيننا من القصة وفصله إلى مراحل ثلاث مختلفة .

المرحلة الاولى : أو مرحلة التمييز والبحث ، وفيها اهتم إبراهيم بآلهة قومه وما يعبدون ، رآهم ينحتون من الحجر أصناماً يعكفون عليها ، يعتقدون أنها تضر وتنفع ، ويرون أنها تعطى وتمنع ، وقد انتهى إلى فساد رأيهم وضلال اعتقادهم ، وفى موقف الرفض هذا نقرأ قوله تعالى «واذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين»^(١)

المرحلة الثانية : أو مرحلة السعى للإيمان ، وفيها سار إبراهيم على نهج العلم الحديث ، فهو بعد الشك فيما عليه قومه بدأ

(١) سورة الأنعام - آية ٧٤

البحث عن الإله الجدير بالعبادة ، وهو عليه السلام قد تطلع من قبل إلى لمعان النجوم فى جوف السماء وشاهد بزوغ القمر وسباحته فى الآفاق ، كما عاين آلاف المرات شروق الشمس وسطوعها فى الصباح ، لكن ذلك كله تم من خلال النظرة العارضة التى تستقبل فيها العين ما يطالعها من مشاهد فى استسلام وسلبية ، أما الآن وهو يبدأ الدراسة فإنه يتطلع إلى كل شىء تطلع الباحث المدقق كأنما يراه للمرة الأولى ، ويبدو أن تفكيره كان قد هداه إلى ضآلة الأرض وكل ما عليها ، وأن الإله الحق من ثم لا يلتبس إلا فى غيرها ، فتولى ببصره إلى السماء ، وتصور الآيات ما حدث على النحو التالى :

«فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الأفلين» (١)

«فلما رأى القمر بارغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين» (٢)

والمستفاد من ذلك :

١- أن إبراهيم عليه السلام قد اعتمد فى بحثه على التجربة والملاحظة مستعيناً بوسائله الحسية المتاحة .

٢- أن السعى لبلوغ الحقيقة المجردة كان هدفه ، لذلك فهو لا

(٢) سورة الأنعام - آية ٧٧

(١) سورة الأنعام - آية ٧٦

يتحس لرأى ارتآه ، إنما يخضعه للتجربة دون ما جمود أو تعصب .

٣- أنه أحس بفطرته السليمة أن وسائل البشر الحسية لا تكفى لبلوغ الحقيقة ، وأن عليه أن يلتمس العون والهداية من الإله الذى يسعى للوصول إليه فقال «لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين» قال ذلك ولم يقعد فى انتظار الهداية ، وإنما واصل البحث من جديد . . «فلما رأى الشمس بارغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت . . .» علم أن كل ما تصافحه العين ، من النجم العظيم إلى الجمرة الصغيرة ، من الصخر الأصم إلى النبتة الضعيفة ما هو إلا من صنع خالق واحد . . وإذ ذاك غشيت رحمة الله فنقشت على صفحة فؤاده . . إنما هو إله واحد وخالق واحد فقال « . . إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين» (١)

المرحلة الثالثة : أو مرحلة الدعوة إلى الإيمان ، وفيها بدأ الصراع بين الحق والباطل ، بين التوحيد والشرك ، وقد بدأها إبراهيم بالموعظة الحسنة يسديها إلى أبيه ، وآيات سورة مريم تصور ما أبلغ تصوير «واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك

(١) سورة الأنعام - آية ٧٨ ، ٧٩

فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان
كان للرحمن عصياً» (١)

لكن أباه لم يسمع ولم يعقل ورد مزمجرأ متوعداً «لئن لم تنته
لأرجمنك واهجرنى ملياً» (٢) لكن تعنت الأب الكافر لم يمنع
الابن المؤمن من معاودة الكثرة محاولاً بالحوار الذكى والحجة
البالغة إقناع أبيه وقومه بإسلام الوجه لله وترك عبادة الأصنام ،
وفى ذلك تسرد آيات سورة الشعراء «إذ قال لآييه وقومه ما
تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل
يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا
آباءنا كذلك يفعلون» (٣)

وهكذا استدرجهم إلى الإقرار بسفهمهم وفساد تفكيرهم ، ثم
اشتعل الجدل واشتدت المحاجاة حسبما صورته سورة الأنعام فى
قوله تعالى «وحاجه قومه قال ألمأجوني فى الله وقد هدان . .
وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم
ينزل به عليكم سلطاناً .» (٤)

ورأى إبراهيم أن مشاعر قومه الغافلة لن توقظها إلا صدمة
قوية ، وأن عقولهم الخاملة لن تتبّه إلا بلطمة قاسية فحطم
أصنامهم وهو يعلم أن الاتهام سيوجه إليه ، وبعد أن جاءوا به

(٢) سورة مريم - آية ٤٦

(٤) آية ٨٠ ، ٨١

(١) سورة مريم - الآيات من ٤١ - ٤٤

(٣) الآيات من ٧٠ - ٧٤

سألوه حسبما تبين سورة الأنبياء :

«أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم»^(١)

وكان قد ترك صنماً كبيراً دون تحطيم فأشار إليه وقال :

« بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون »^(٢)

ونجحت خطته ، فبدأ لهم سوء عملهم إذ يقصدون ما ينحتون

« فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون »^(٣)

لكن طبيعتهم الفاسدة غلبت عليهم «ثم نكسوا على رؤوسهم

لقد علمت ما هؤلاء ينطقون»^(٤)

وسارع إبراهيم إلى استغلال الفرصة فسألهم «أفتعبدون من

دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم»^(٥) لكن البلادة في أعين

القوم كانت تؤكد أن في آذانهم وقرا ، وأن على قلوبهم أكنة ،

فنهرهم إبراهيم قائلاً «أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا

تعقلون»^(٦)

«قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار

كوني برداً وسلاماً على إبراهيم»^(٧)

ذلك هو في إيجاز الجزء الأول من قصة إبراهيم كما صورته لنا

(٢) آية ٦٤

(٦) آية ٦٧

(٢) آية ٦٣

(٥) آية ٦٦

(١) آية ٦٢

(٤) آية ٦٥

(٧) آية ٦٨ ، ٦٩

القرآن الكريم ، وهو يؤكد أن إيمانه لم يكن هدية ألقيت إليه من السماء ، بل كان نتيجة لسعى دائم بذله ولجهد متصل لم ييخل به ، كما يبين أنه عليه السلام سواء قبل بعثته أو بعدها كان نافذ البصيرة متوقد الذكاء ، قوى الحجة ساطع البرهان . كذلك توضح أحداث ذلك الجزء من القصة لما اتخذ الله إبراهيم خليلًا، فها نحن حيال نموذج فريد من البشر يقدم لنا القدوة فى رفض الانقياد الأعمى لنهج الآباء والعامة . ويحدد السبيل الأقوم لما يجب أن تنصرف إليه الحواس ، ثم هو يعرض لنا المنهاج الأمثل فى المواءمة بين استنفاد الطاقة البشرية وبين الاستعانة بالله والتماس الهداية منه .

ولنتقل بعد ذلك إلى مواقف أخرى صورها القرآن الكريم تساعد على تحديد الملامح الشخصية لهذا الرسول الكريم .

تسجل الآيات (٢٥٨، ٢٥٩ ، ٢٦٠) من سورة البقرة ثلاثة مشاهد ، الأول والثالث منها لإبراهيم عليه السلام ، والثانى لعبد من عباد الله ، وتجرى الآيات الثلاث على النحو التالى :

« ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين » .

« أو كالذي مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير .

«وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحمى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم» .

وتتحدث الآية الأولى عن حاكم كفر بأنعم الله واغتر بما بين يديه من جاه وسلطان فلما بلغته دعوة إبراهيم استدعاه وسأله (من ربك؟) .

قال «ربى الذى يحيى ويميت» .

امتلاً قلب الملك الكافر ثقة كاذبة ورد باستعلاء أجوف «أنا أحيى وأميت» وجاء حسبما قرر بعض المفسرين ببرىء فأمر بقتله وبمحكوم عليه بالموت فأخلى سبيله .

قال إبراهيم «فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب» .

فبهت الملك المكابر ولم ينطق .

ويؤكد هذا الموقف ما سلف بيانه من صفات لإبراهيم عليه السلام ويزيدها وضوحاً ، فهو يجسد فطنته فى إعراضه الذكى عما يحتمل الخلاف إلى ما لا يحتمل ، وهو يؤكد أن قدرته على الجدل ليست إلا صدى لقوة يقينه ، وأن طاقته على المحاجة ليست إلا انعكاساً لثبات عقيدته ورسوخ إيمانه .

وعلى ذلك المنوال تضطرد آيات الكتاب الكريم ، فهى تبين أن إيمان إبراهيم عليه السلام لم يكن إيماناً مفروضاً ، ولا كان وليداً لصدفة لاحت أو لظروف طرأت بل هو إيمان متين له قواعد ثابتة من الأدلة العقلية ، وأسانيد راسخة من القناعة الشخصية ، وكافة مواقف إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم تؤكد ذلك المفهوم وتدعمه فيما عدا الآية الثالثة التى خرجت عن هذا الإطار ونسبت لإبراهيم عليه السلام موقفاً يتعارض مع كل ما سلف له من صفات ويتنافى مع ما فى قلبه من ثقة بالله واطمئنان إلى قدرته ، وهى تجرى على النحو التالى :

« وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحمى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى .. »

ولحسن الحظ فلقد أثار هذا الموقف فضول المفسرين واهتمامهم ، ولأن رؤية إحياء الموتى ليست من شأن البشر ، ولأنه ليس ثمة

فائدة يمكن أن تعود عليهم منها ، فقد ركز المفسرون الأضواء على هواجس إبراهيم ودوافعه لرؤية إحياء الموتى ، وفى هذا الصدد فإن أبحاثهم دارت حول مفهوم (الشك) وانحصرت فى نطاقه ، انبرى بعضهم لإثباته ، وتحمس آخرون لنفيه ، ووقف فريق ثالث منه موقفاً وسطاً ، ولأهمية الأمر من جهة ولتناقض (الشك) مع صفات إبراهيم من جهة أخرى فلا مفر من استعراض ما سطره المفسرون على وجه التفصيل :

ومن الذين قالوا إن إبراهيم عليه السلام قد شك : الطبرى ، وفى تفسير قوله تعالى «وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى . . » يسرد آراء الآخرين على النحو التالى ، يقول :

اختلف أهل التأويل فى سبب مسألة إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ؟

فقال بعضهم : كان مسألته ذلك ربه ، أنه رأى دابة قد تقسمتها السباع والطير ، فسأل ربه أن يريه كيفية إحيائه إياها مع تفريق لحومها فى بطون طير الهواء وسباع الأرض ليرى ذلك عياناً فيزداد يقيناً برؤيته ذلك عياناً إلى علمه به خبراً . .

وقال آخرون : بل كان سبب مسألته ربه ذلك المناظرة والمحاجة التى جرت بينه وبين عمروذ فى ذلك . .

وقال آخرون : بل كانت مسألته ذلك ربه عند البشارة التى أتته من الله بأنه اتخذ له خليلاً ، فسأل ربه أن يريه عاجلاً من العلامة له على ذلك

ليطمئن قلبه .

وقال آخرون : قال ذلك لربه لأنه شك في قدرة الله على إحياء الموتى

وبعد ذلك يوضح الطبري رأيه فيقول : وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية : ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قاله ، وهو قوله «نحن أحق بالشك من إبراهيم ، قال رب أرني كيف تحيي الموتى . قال أو لم تؤمن» وأن تكون مسألته ربه ما سأله أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض في قلبه ، كالذي ذكرنا عن ابن زيد أنفاً من أن إبراهيم لما رأى الحوت الذي بعضه في البر وبعضه في البحر قد تعاوره دواب البر ودواب البحر وطير الهواء ، ألقى الشيطان في نفسه فقال : متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء ؟

فسأل إبراهيم حيثئذ ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ليعاين ذلك عياناً ، فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقي في قلبه مثل الذي ألقى فيه عند رؤيته ما رأى من ذلك ، فقال له ربه « أو لم تؤمن » يقول : أو لم تصدق يا إبراهيم بأننى على ذلك قادر ، قال : بلى يارب ، لكن سألتك أن ترينى ذلك ليطمئن قلبى ، فلا يقدر الشيطان أن يلقي في قلبى مثل الذى فعل عند رؤيته هذا الحوت» (١)

ومن الذين ينفون الشك عن إبراهيم عليه السلام ابن عطية والقرطبي ، وفي تفسير الآية الكريمة يقول القرطبي :

اختلف الناس في هذا السؤال هل صدر من إبراهيم عن شك أم لا ؟ فقال الجمهور : لم يكن إبراهيم عليه السلام شاكاً في إحياء الله الموتى ،

(١) تفسير الطبري - جزء ٢ . صفحة ٤٧ وما بعدها

وإنما طلب المعاينة ، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به ، ولهذا قال عليه السلام «ليس الخبر كالمعاينة» وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير والربيع : سأل ليزداد يقيناً إلى يقينه .

ثم ينقل القرطبي عن ابن عطية ما نصه :

وترجم الطبري في تفسيره فقال : وقال آخرون سأل ذلك ربه ، لأنه شك في قدرة الله تعالى ، وأدخل تحت الترجمة عن ابن عباس قال : ما في القرآن آية أرجى عندي منها . . قلت - الكلام مازال لابن عطية - وما ترجم به الطبري عندي مردود ، وما دخل تحت الترجمة متأول ، فاما قول ابن عباس « هي أرجى آية » فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى وسؤال الإحياء في الدنيا وليست مظنة ذلك . ويجوز أن يقول :

هي أرجى آية لقوله «أو لم تؤمن» أي أن الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقيح وبحث . وأما قول عطاء «دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس» فمعناه من حيث المعاينة على ما تقدم . وأما قول النبي ﷺ «نحن أحق بالشك من إبراهيم» فمعناه أنه لو كان شاكاً لكننا نحن أحق به ونحن لا نشك إبراهيم عليه السلام أخرى ألا يشك . فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم . . وإحياء الموتى يثبت بالسمع وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به ، ويدل ذلك على ذلك «ربي الذي يحيى ويميت» فالشك يبعد على من تثبت قدمه في الإيمان فقط فكيف بمرتبة النبوة والخلة . والانبيااء معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعاً ، وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكاً ، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمستؤل . نحو قولك كيف علم زيد ؟ وكيف نسج الثوب ؟ ونحو هذا .

ثم يعقب القرطبي على ما سلف فيقول :

هذا ما ذكره ابن عطية وهو بالغ ، ولا يجوز على الأنبياء صلوات الله عليهم مثل هذا الشك فإنه كفر والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث ، وقد أخبر الله تعالى أن أنبياءه وأوليائه ليس للشيطان عليهم سبيل فقال : إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . وإذا لم يكن له عليهم سلطان فكيف يشككهم ، وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها فقله «أرني كيف . . .» طلب مشاهدة الكيفية قال «بلى ولكن ليطمئن قلبي» أى سألتك ليطمئن قلبي بحصول الفرق بين المعلوم برهاناً والمعلوم عياناً والطمأنينة اعتدال وسكون . وطمأنينة القلب هو أن يسكن فكره فى الشيء المعتقد والفكر فى صورة الإحياء غير محذور (١)

ومن الذين وقفوا من الآية موقفاً وسطاً ابن كثير فهو يقول فى تفسيره :

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسباباً منها أنه لما قال لنمرود «ربى الذى يحيى ويميت» أحب أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة . . وقال البغوى إن كلام إبراهيم فيه إعلام أن المسألة منه عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان ، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال (٢)

وكذلك الزمخشري إذ يقول :

(١) تفسير القرطبي - الجزء الثالث - صفحة ٢٩٧ وما بعدها

(٢) تفسير ابن كثير - جزء أول - صفحة ٣١٥

أرني «بصرني» فلإن قلت كيف قال له أو لم تؤمن وقد علم أنه أثبت الناس إيماناً قلت ليحجب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين و «بلى» إيجاب لما بعد النفي معناه بلى آمنت «ولكن ليطمئن قلبي» ليزيد سكونا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة علم الاستدلال . وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأريد للبصيرة واليقين ، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري فأراد بطمأنينة القلب العلم الذى لا مجال فيه للتشكيك (١)

ولعله من المناسب بعد ذلك أن نستعرض رأى أحد المعاصرين فى تفسير الآية ، وهو فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى . والرأى ورد ضمن سلسلة المحاضرات التى ألقىت بمركز الإعلام الدينى بسفارة جمهورية مصر بالجزائر خلال شهر رمضان المبارك عام ١٣٩٠ هـ نوفمبر ١٩٧٠ ، يقول فضيلته :

مثلاً إبراهيم خليل الله ورسوله كان أول المؤمنين به وأول المؤمنين المعتقدين بكل صفاته ، وأنه هو الذى أوجد وهو الذى يمت وهو الذى يبعث ويجازى ويحاسب ، يعتقد هذا ، إذن فهذه العقيدة ليس لإبراهيم مزيد عليها ، ولكن إبراهيم عليه السلام ظن أنه من كمال العقيدة فى أن الله يحيى الموتى ، أن يعلم هذه الكيفية التى يحيى بها الموتى ، هذا أمر رائد عن الاعتقاد ، إذن فالاعتقاد يكفيك أن تعلم أن الله قادر على أن يحيى الموتى ، أما أن تعرف كيف ، فانت تريد إذن أن تتعلم منه إحياء الموتى . لذلك كان هذا اللون لم يستره القرآن عنا ، لا ليعطينا شيئاً عن

(١) تفسير الزمخشري . جزء أول - صفحة ١٢٠

تاريخ إبراهيم ، وإنما ليعطينا عنه العبرة بما جاء على لسان إبراهيم حتى لا يتكرر مثل ذلك من إدخال عنصر فى العقيدة هو ليس منها .

ثم يضيف :

إن إبراهيم لم يقل يارب «أنهى الموتى؟» إنما قال «كيف تحيى الموتى؟» فالسؤال بكيف يقتضى بأن الحدث مسلم به موجود ، كما أقول كيف بنيت هذا البيت ؟ إذن فأنا لا أسأل عن بناء البيت فالبيت مبنى أمامى ، وأقول كيف صنعت هذه القصيدة ؟ فالقصيدة موجودة أمامى فأنا لا أشك فى الحدث ، وإنما الذى أريده كيف صنعت وكيف بنيت ؟ والذى يريده إبراهيم « كيف تحيى الموتى » إذن فقله « أو لم تؤمن » أى بأنى أحيى الموتى . قال هذا القدر موجود والحمد لله . أو من أنك تحيى الموتى ولكن أنا طالب الكيفية .

ذلك هو مجمل ما ورد من أقوال فى تفسير الآية الكريمة «وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى . . » والآراء كما هو واضح تنقسم إلى :

١- إن إبراهيم قد داخله بعض الشك ، فطلب أن يرى ليتأكد، أى إن شك إبراهيم كان يمثل مشكلة خاصة «قول الطبرى» .

٢- إنه قد دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس ، أى أن شكه كان يمثل مشكلة إنسانية عامة «قول عطاء» .

٣- إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكا فى قدرة الله ، وإنما

طلب الرؤية من قبل زيادة العلم بالعيان كى يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين «قول الجمهور» .

٤- ما انفرد به فضيلة الشيخ الشعراوى من أن إبراهيم ظن أنه من كمال العقيدة أن يتعلم كيفية إحياء الموتى ، وهو أمر زائد عن الاعتقاد ، أوضحه القرآن الكريم حتى لا نقع فى مثله بإدخال عنصر فى العقيدة ليس منها .

فما هى حقيقة الامر ؟ وهل ناقض إبراهيم نفسه فى ذلك الموقف ؟ وهل ما صدر عنه كان عن شك فى قدرة الله ؟

للإجابة على هذه التساؤلات لابد من الإشارة إلى حديثين تعلقا بالآية الكريمة وارتبطا بها ، أولهما لرسول الله ﷺ والثانى لابن عباس ، وعند تفسيرها فإنه يتعين الالتزام بهما وإلقاء الأضواء عليهما وهو ما نحتاجه الآن :

الحديث الأول

ورد فى صحيح البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى .

ففى هذا الحديث الشريف رأى نبوى محدد فى بعض ما تعرض له الأنبياء نستعرضه بشىء من التفصيل وعلى غير الترتيب الذى جاءت به المواقف فى الحديث .

الموقف الأول : ليوسف عليه السلام وقد دخل السجن دون أن يقترب إثما أو يحمل وزرا ، ولبت فيه بضع سنين ثم جاءه رسول الملك ليخرجه من ظلمات السجن وضيقه إلى رحاب القصور ونعيم الملوك ، لكن يوسف لم يسارع إلى اهتبال الفرصة وقبول المنحة ، وصرف الرسول قائلا «ارجع إلى ربك فسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن . . » (١)

وإزاء إصراره على رفض حرية تحوطها الشبهات وإعراضه عن أنصاف الحلول فقد تم استدعاء النسوة شهود المأذبة فقلن «حاش لله ما علمنا عليه من سوء . . » وأسقط فى يد المدعية فاعترفت «الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين » (٢)

وعن هذه القوة فى الحق والاستهانة بما يصيب الإنسان من غبن يحيى رسولنا الكريم أخاه يوسف ويعلى من شأنه فيقول إنه ﷺ لو مر بالتجربة ذاتها لسارع بالخروج من السجن قبل أن يهتم بنفى اتهام ظالم أو إثبات براءة مستحقة .

الموقف الثانى : للوط عليه السلام وقد استضاف رجلين ذوى

(٢) سورة يوسف - آية ٥١

(١) سورة يوسف - الآية ٥٠

هيئة وبهاء ثم أحاط الفسقة من أهل المدينة بداره يريدون انتزاع الضيفين ، كانوا كثرة وكانوا عصبه ، وهو فرد وحيد ، وإنها لكبيرة ألا يحمى الرجل ضيفه ، وإنه للذل والهوان أن يستباح حماه ، فقال معبراً عن عجزه وأساه : لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد^(١)

وعن يأس لوط الذى لم يكن له مبرر وشكواه القائمة على غير أساس يدعو رسولنا المصطفى له بالرحمة ، فالضيفان كانا ملكين هبطا من السماء على هيئة البشر لإنزال العذاب بالقوم الفاسقين .

الموقف الثالث : لإبراهيم عليه السلام وهو يطلب رؤية إحياء الموتى ، وعنه يقول رسولنا الكريم «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى »

فلقد تعلق سؤال إبراهيم بما يقع فى نطاق الغيب ويتعين الإيمان به دون دليل ، أما التبرير الذى قدمه « ليطمئن قلبى » فإنه كشف عن وجود قلق وحيرة فى صدره ، وأن سكون هذا القلق وزوال تلك الحيرة لن يتم إلا برؤية إحياء الموتى .

والأصل أن التطلع إلى دليل مادى «كالمعاينة» على أمر غيبى «كالبعث» يمثل عرضاً يلحق بالإيمان ، ممكن أن يصيب عامة البشر

(١) سورة هود - آية ٨٠

وخاصتهم ، يراودهم ويصدونه ويناثوهم ويدفعونه ، ويكون صمودهم له على قدر درجاتهم . ولقد افترض رسولنا الكريم - تواضعاً منه - أنه في البراءة من هذا العرض والمناعة منه يأتي في المرتبة الثانية ، أما المرتبة الأولى فهي لإبراهيم الذي اتسم سعيه إلى الإيمان بإيجابية لم تؤثر عن أى من البشر عامة أو الرسل خاصة ، والذي شرع يدعو إلى الإيمان لا تخرجه صلة رحم ولا يردعه تحدى مجتمع جاهل ولا يخيفه التصدى لحاكم ظالم ، فإذا ما كشف إبراهيم بعد كل هذه الدلائل عن أن قلبه لم يكن مطمئناً وبقينه لم يكن مستقراً فإن من يليه فى المرتبة أولى أن يتساءل وأحق أن يشك .

فهذا الحديث الأول لرسول الله ﷺ الذى ارتبط بالآية الكريمة يدور فى مجمله حول نوازع بشرية غليت على تصرفات بعض الأنبياء ، فى واحد منها تحقق الضعف فعلا فى جانب لوط ، إذ افتقد القوة وهو فى عريتها والتمس الحماية وهو فى كنفها ، بينما لم يتحقق الضعف فى الثانى ، بل افترض محمد صلوات الله وسلامه عليه أنه لو مر بتجربة يوسف لما صمد صموده ولقبل الدعوة الأولى للخروج من السجن ، وأكرر أن هذا الافتراض هو فرط أدب وكرم من محمد صلوات الله وسلامه عليه ، يتواضع فيه لأقصى حد كى يعلى من شأن يوسف لأقصى حد ، ويكفى أنه فى عنقوان الاضطهاد له ولأصحابه عرض عليه قومه الملك

والرفعة والمال ليدعهم وآلهتهم فما لان ولا هادن ولا حاد عن سبيل الله .

أما في الموقف الثالث . . فقد غلبت المشاعر البشرية على أبي الأنبياء وخليل الرحمن الذي افترض محمد صلوات الله عليه أنه أقوى البشر إيماناً وأعلاهم يقيناً ، وهنا أيضاً يتواضع رسولنا الكريم مرة ثانية ليرفع الحرج عن إبراهيم فقال «نحن أحق بالشك منه . .» أى أنه لم يكن بوسع بشر آخر أن يطمئن بالإيمان قلبه دون أن يطلب ما طلبه إبراهيم . لأنه لو جاز لمن نظر وتدبر وقطع معظم الطريق إلى الله قبل أن ينزل عليه الوحي أن يلتمس دليلاً يستكمل به اطمئنانه قلبه لكان الذى نزل عليه الوحي دون ترقب أو انتظار أولى أن يلتمس ذلك الدليل .

الحديث الثانى

ما ورد عن ابن عباس ، وقد أثبتته القرطبى فى تفسيره ، لكن ابن كثير جاء به مفصلاً على النحو التالى :

التقى عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمرو بن العاص فقال ابن عباس لابن عمرو : أى آية فى القرآن أرجى عندك ؟ فقال عبدالله بن عمرو : قول الله عز وجل «قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . . الآية» فقال عبدالله بن عباس لكن أنا أقول : قول الله عز وجل : « وإذ قال إبراهيم رب أرنى

كيف تحمى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى « فرضى من إبراهيم قوله « بلى » قال : فهذا لما يعترض النفوس ويوسوس به الشيطان (١)

وللوهلة الأولى ، فإن اختيار ابن عباس قد يبدو مجافياً للمنطق ، ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تصف الله عز وجل بأنه : الغفور ، والرحيم ، والثواب ، والكريم ، وفيه الآية التي اختارها عبدالله بن عمرو « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم » (٢)

فلماذا يترك عبدالله بن عباس ذلك كله ليقف حيال آية « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحمى الموتى » ليقرر أنها - وهى الخالية من صفات الرحمة أو المغفرة - أكثر آيات الكتاب الكريم دلالة على رحمة الله وأفسحها لأمل البشر فى عفوه ومغفرته ؟

إن الإضافة التى تكمل حديث ابن عباس تعتبر مفتاح فهمه للآية الكريمة ، فهو يقول : « فهذا - أى قبول الله عز وجل لسؤال إبراهيم واستجابته لطلبه - لما يعترض النفوس ويوسوس به الشيطان » .

(١) تفسير ابن كثير . الجزء الأول - صفحة ٣١٦

(٢) سورة الزمر - آية ٥٢

وابتداء فإن ما يعترض النفوس ويوسوس به الشيطان لا يمكن أن يمس جانب الإيمان بوجود الخالق ووحدانيته ، فالشك أو التردد فى هذا الجانب محذور سواء على البشر أو على الرسل ، ولأن الأدلة على هذه الدعوى أكثر من أن تحصى فإن طلب المزيد منها مرفوض . أما الإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار فذلك ما لا دليل عليه وبالتالي تمارى النفوس فى قبوله وتطعن وساوس الشيطان فى وجوده .

وعلى ما يبدو من حديث ابن عباس فإن الإيمان بوجود عالم الغيب يمثل - ليس بالنسبة له خاصة بل ولغيره من البشر عامة - الجانب الرخو من الإيمان ، فاقتقاد هذا الجانب للدليل المادى وقيامه على الأحاسيس الفطرية وحدها يمكن أن يؤدى إلى زعزعة أركانه بين الحين والحين ، لما يعترض النفوس من نزغات داخلية أو لما يلقيه الشيطان من وساوس خارجية ، لكن ابن عباس كان يعتقد أن الاستسلام لذلك الضعف البشرى هو الضلال المبين ، كان يخشى إن ألم به تساؤل عن البعث وما بعد الموت أن يثلم ذلك إيمانه أو يفسد عقيدته ، لكن ها هو ذا إبراهيم عليه السلام يطرح التساؤل ذاته فلا يواجه بالرفض ولا يقابل بالاستنكار ، وهذه الحقيقة وحدها كانت كفيلة بأن تملأ قلب ابن عباس بالرضا والارتياح ، أما ما لم يكن يتوقعه فهو أن يجاب إبراهيم إلى طلبه ويرى ما يطمئن قلبه ، فكان الآية الكريمة «وإذ قال إبراهيم رب

أرني كيف تحيي الموتى . . » تقرر أن الخالق عز وجل «يراعى قدرات عباده وعجزهم عن الاستيعاب الكامل لوجود دينا الغيب» وهو ما يمثل أعلى درجات الرحمة والعفو والمغفرة . . فكانت هذه الآية عند ابن عباس - وهو الحق - أرجى آية فى كتاب الله تفتح للنشر أبواب رحمة الله وتفسح لهم سبيلاً إلى عفوه ومغفرته لما فيها من قبول لما كان حرياً بالرفض ، ورضاً عما كان يستوجب السخط ، واستجابة لما كان ابن عباس يعتقد أنه لا يجب أن يطرح أو يناقش .

وفى ضوء ما سلف بيانه عن حديث رسول الله ﷺ وحديث ابن عباس فإن أقرب الآراء إلى الصحة فى تفسير قوله تعالى «وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى» هو ما ذهب إليه الجمهور من أنه عليه السلام لم يكن شاكاً فى قدرة الله ، وإنما طلب الرؤية من قبل زيادة العلم بالعيان كى يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ، غير أن هذا الرأى الراجع لم يوضح لنا لماذا طلب إبراهيم هذا الترقى وسعى إليه ، أو ما هى الفائدة التى تعود عليه منه ؟

الطبرى وحده تصدى لهذه التساؤلات فقرر : أن إبراهيم عليه السلام سأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ليعاين ذلك عياناً فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقي فى قلبه مثل الذى ألقى فيه عند

رؤيته ما رأى من ذلك ، فقال له ربه «أو لم تؤمن» يقول : أو لم تصدق يا إبراهيم بأنى على ذلك قادر ؟ قال : بلى يارب ، لكن سألتك أن ترينى ذلك ليطمئن قلبى فلا يقدر الشيطان أن يلقي فى قلبى مثل الذى فعل عند رؤيتى هذا الحوت .

فالتبرى يرى : أن الهدف الحقيقى لإبراهيم لم يكن دفع قلق وقتى أو طارئ ، بل التوقى - بدليل مady - لما يمكن أن يثور فى النفس مستقبلاً عندما تتأزم الأمور أو يعرض لها ما تحار فيه الألباب .

فإبراهيم عليه السلام استدلل على وجود الله ووحدانيته بسمعه وبصره وبالإقرار الأزلئ المسطور فى فطرته ، فإيمانه فى هذا الجانب قائم على إدراك كامل وبقين ثابت ، لكن ماذا عن إيمانه بالبعث الذى يدعيه والحساب الذى يحذر منه والجنة التى يبشر بها والنار التى يخوف منها ؟ إنه يؤمن بوجودها ، لكنه لم يطلع ولم يعاين ، ومع ميله الغريزى لأسلوب التجربة والاستدلال فإنه لا يستقيم جانب من الإيمان مؤيد بالدليل الحسى مع جانب آخر يفتقر إلى هذا الدليل ، ومع ثراء نشاطه ذهنى فلا بد للتساؤلات أن تتراكم وأن تثور ، فطلب رؤية إحياء الموتى كان صدى طبيعياً ومتوقعاً لعجز حواس إبراهيم عن اختراق حجب الغيب من جهة ، ولإحجام الوحى عن كشف غوامضه من جهة أخرى ، ومن ثم فلم يكن هناك بد من مبادرة يقدم عليها إبراهيم عليه

السلام يلتمس بها دليلاً على وجود الغيب لا يتسنى معه بعد ذلك للشك أن يتسلل إليه أو يقترب منه ، فكان طلبه رؤية إحياء الموتى ، وهو طلب نلمح فيه ذكاء إبراهيم وأدبه ، فهو قد اختار الخطوة الأولى فى عالم الغيب وهى البعث ، إن اطمأن إليها قلبه ، فإن اطمئنانه لما يليها من حساب وجزاء وجنة ونار يكون قد تحقق وزيادة .

هذه الوجهة من النظر فى تفسير قوله تعالى «وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحمى الموتى» تتأكد أكثر لو رجعنا إلى الآيات المتتابعات من سورة البقرة التى أوردناها من قبل :

فالأية الأولى تتحدث عن الذى حاج إبراهيم فى ربه ، والأية الثانية عن الذى مر على قرية خاوية ، والأية الثالثة هى التى انتهينا من بيانها آنفا .

فالأية الأولى والثالثة تخصان إبراهيم عليه السلام ، فلماذا جاءت الأية الثانية لتفصل بينهما بقصة الرجل الذى مر على القرية ؟

وتجرى الآية الثانية على النحو التالى « أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه

وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير» (١)

فالآية الكريمة تقص خبر رجل مر على أطلال قرية خربة خاوية ، كان يعرفها من قبل ، أو سمع كثيراً عن عمارتها بالدور وازدحام طرقاتها بالناس . . تقابلت الصورتان في مخيلته ، صورة الحياة النشطة الصاخبة وصورة السكون الثقيل المطبق وعندئذ ، واجه الرجل - وعلى غير انتظار - ذلك التساؤل الأزلي «أموت ثم بعث ثم نشر» وبدلاً من الإجابة بالنفس فإنه طرح تساؤله الذي أكد إيمانه بوجود الله ، إلا أنه كشف عن عجزه عن تصور إمكانية البعث بعد الموت .

ولأنه لم يكن في تساؤله مستنكراً ولا مستهزئاً فقد أراه الله قدرته بترتيب نتائج مختلفة لظروف متشابهة ، وذلك بمثل ضربه له في نفسه وفيما يملك ، في نفسه بأن أماته مائة عام ثم بعثه ، وفيما يملك ، إذ ظل طعامه الميت طارحاً دون أن يفسد ، أما حماره الحى ، فهو الذى جرت عليه سنن الكون ، فقد شبع موتاً وتعفن جسده وتبدد ، ولم يبق منه إلا شظايا مبعثرة من عظام نخرة أعيد جمعها تحت سمع الرجل وبصره ثم جرت

(١) سورة البقرة - آية ٢٥٩

خلالها العروق وربطت بينها الأعصاب ثم انتصب الحمار بعد أن اكتسى لحماً ومد فمه إلى أديم الأرض يجمع حشائشها بشفاهه الغليظة .

إن قصة ذلك الرجل المجهول تمثل في حقيقة الأمر موقفاً إنسانياً عاماً ، يرتد فيه البصر حسيماً إذ يبلغ أطراف عالم الغيب ، وفى مثل ذلك الموقف من الطبيعي أن يثور الشك العاصف أو التساؤل الحائر فى صورة خواطر تبدأ من قاع النفس كقفاعات الهواء تشق بطن الماء إلى سطحه ، ينفجر أكثرها ويتبدد ، بينما تبقى أعداد منها - لفترة - متماسكة بطريقة لافتة للنظر .

ولأن الآية الأولى تبدأ بقوله تعالى «ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه . . » والثانية تبدأ بقوله سبحانه «أو كالذى مر على قرية . . » فقد أجمع المفسرون على الربط بينهما ، وهو ربط يقوم على أساس لغوى ، فالقرطبى يقول فى تفسيره «أو كالذى مر على قرية . . » أو للعطف حملاً على المعنى ، والتقدير عند الكسائى والفراء هل رأيت كالذى حاج إبراهيم فى ربه أو كالذى مر على قرية . قال المبرد : المعنى : ألم تر الذى حاج إبراهيم فى ربه ، ألم تر من هو ؟ كالذى مر على قرية ^(١)

ودونما اعتراض على هذه الرابطة الشكلية التى أجمع عليها

(١) تفسير القرطبى : الجزء الثالث صفحة ٢٨٨

المفسرون ، فإن الإهتمام بها قد لفت الأنظار عن رابطة أخرى موضوعية بين الآيات الثلاث بصفة عامة وبين الآيتين الثانية والثالثة بصفة خاصة .

فالآية الأولى تعرض قصة الملك الكافر الذى اغتر بسعة ملكه وقوة سلطانه فطفق يجادل بغير علم ، والذى تصدى له كان يستمد قوة حجته من قوة إيمانه ، ويعتمد فى منطقته الحاسم على اقتناعه الشخصى الراسخ ، لكن ذلك لم يمنعه أن يقف بعد ذلك موقفا آخر ، وكان من الممكن أن يتابع التسجيل فترد الآية الثالثة بعد الأولى مباشرة ، وبذلك تتم المقابلة بين موقفين : فى الأول عقيدة راسخة « ربى الذى يحيى ويميت » وفى الثانى تساؤل قلق « رب أرنى كيف تحيى الموتى » لكن الآية الثانية جاءت لتمهد للموقف الذى سيقفه إبراهيم عليه السلام ولتبين أن شأنه فى حيرته هو شأن البشر أجمعين ، فطالما أن سيبلهم لاكتساب العلم ولتحصيل المعرفة هو حواسهم ، فسيبقى الإيمان بما لا تمسه كقصور من الرمال يمكن أن تنهار بلا سبب أو لأهون سبب ، وفى هذا الصدد لا امتياز للأنبياء على غيرهم ، فتساؤل إبراهيم عليه السلام لم يكن مجرد مشكلة ذاتية خاصة بل كان جزءا من قضية إنسانية عامة سبق لرجل مجهول أن طرحها فقبلت بعناية بالغة وباهتمام فى الرد شديد .

فالروية التى التمسها إبراهيم كانت «معاناة» لازمة لاستكمال

يقينه بوجود عالم الغيب . وعلم اليقين ، أو عين اليقين الذى استهدفه إبراهيم هو ، كما يقول الإمام محمد عبده : الاعتقاد الذى يطابق الواقع عن عيان أو دليل صحيح ، مقدماته بديهية أو منتبهة إلى البديهيات بحيث يستحيل تغييره ، والنفوس إذا ملكت هذا النوع من العلم ملك هو إرادتها وعاد المصروف لها فى شئونها .

وعلى ذلك فلم يكن هناك بد من :

السؤال الذى طرحه : .. «رب أرنى كيف تحيى الموتى»

والإجابة التى حظى بها : «فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً» .. فهذا السؤال كان جهداً مطلوباً ، بغيره ما كان للإطمئنان أن يغمر قلب إبراهيم ، وتلك الإجابة كانت لازمة لما يليق بمرتبة الخلعة وشرف النبوة وبما يتناسب مع التكليف بإبلاغ رسالة السماء .

لكن ، هل انفرد إبراهيم عليه السلام بهذه المحاولة للنفاذ من بين أستار الغيب ، أم أن هناك رسلاً ساروا على نهجه ؟ ذلك ما سوف نقف عليه من خلال المتابعة القرآنية لقصة موسى عليه السلام .

موسى عليه السلام

بالإضافة إلى ما ورد في سورة البقرة عن قصة بنى إسرائيل أنفسهم ، فقد اهتم القرآن الكريم بقصة موسى عليه السلام وأوردها في أكثر من سورة منها «الأعراف ، طه ، الشعراء» وقد ركزت كل سورة على زاوية معينة أو جانب محدد من القصة ، لكن سورة القصص أحاطت في تواصل وترابط بمعظم مراحلها مع بسط في ناحية وقبض في أخرى ، وهى تبدأ بإبراز الظروف التعبة التى أحاطت بمولد موسى وهددت بالقضاء عليه وكيف أن غلبة الخوف على أمه قد دفعها إلى أن تطلقه مع التيار فى سلة تتقاذفها أمواج النهر حيث التقطه آل فرعون «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى ..» (١)

ورغم علم آل فرعون أنه أحد مواليد الإسرائيليين الذين صدر الأمر بقتلهم إلا أن قلب امرأة فرعون رق للوليد الصغير فقررت حمايته والإبقاء عليه «وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا» (٢)

وتنبسط الآيات بعد ذلك لبيان كيفية تحقيق وعد الله برد موسى

(٢) سورة القصص - آية ٩

(١) سورة القصص - آية ٧

إلى صدر أمه وذراعيها «وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن» ^(١) ثم تنتقل الأحداث فجأة إلى موسى وقد بلغ أشده وقتله لأحد المصريين ثم هروبه خائفاً عبر سيناء إلى مدين بصحراء شمال الجزيرة العربية ومساعدته لامرأتين فى سقيا إبلهما ثم رجوع واحدة منهما تدعوه لزيارة أبيها الذى عرض عليه الزواج من إحداهما لقاء أن يعمل عنده ثمانية أعوام له أن يزيدها إلى عشرة .

ولبث موسى عشر سنين وفى فيها التزامه ، لكن حنينه إلى مصر - فيما يبدو - لم يفتر خلال تلك السنين ، فما أن أتم المدة حتى سار بأهله يقصد مصر . وفى صحراء سيناء داهمته ليلة عاصفة الريح كثيفة الظلام ، وضل طريقه وليس من علامة يهتدى بها لا فى الأرض ولا فى السماء ، ووسط هذا اليأس المطبق والضياع المحتوم يلمح ناراً لا تعنى له الدفء فى هذا البرد اللافتح بل تعنى كذلك الأمل فى استمرار الحياة ، فقال لأهله « امكثوا إني آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون» ^(٢)

لكنه إذ اقترب من النار نودى . . « أن يا موسى إني أنا الله

(٢) سورة القصص - آية ٢٩

(١) سورة القصص - آية ١٢ ، ١٣

رب العالمين « (١) وهنالك صدر له التكليف الإلهي بمواجهة
فرعون مصر ، وبدأت بالتالى مهمته كرسول من عند الله .

وإذا انتقلنا إلى سورة الشعراء التى تبدأ القصة فيها من لحظة
تكليف موسى بالرسالة ، فسنتالع مشاهد نابضة بالحياة عامرة
بالحركة لكل ما دار بين موسى وفرعون ابتداء بعرض موسى
لدعوته وآياته ثم لقائه بالسحرة وانتهاء بإغراق فرعون وجنوده (٢)

أما سورة طه التى تهتم بالعديد من تفصيلات القصة فإنها تركز
على المقابلة بين رسوخ الإيمان فى قلوب السحرة من بعد ما آمنوا
وبين ضعف الإيمان فى قلوب بنى إسرائيل رغم ما رأوا من الآيات
البيّنات (٣) وأخيراً فإن سورة الأعراف التى تطوى أحداث القصة
من لحظة لقاء موسى بفرعون ثم بالسحرة فإن المحور الرئيسى لها
هو بيان أن معاناة موسى لم تقتصر على استكبار فرعون
وعصابته، بل إن ما ناله من فساد بنى إسرائيل وميلهم الغريزى
للانحراف كان أشد وأفدح (٤)

ومن بين آيات تلك السور الكريمة نستطيع أن نحصل على
صورة واضحة الملامح والصفات لشخصية موسى عليه السلام ،
وهى شخصية تغلب عليها قوة الشكيمة وسرعة الغضب وحدة

(١) سورة القصص - آية ٣٠ (٢) سورة الشعراء - الآيات من ١٠-٦٦

(٣) سورة طه - الآيات من ٩-٩٨ (٤) سورة الأعراف - الآيات من ١٠٣-١٥٦

الانفعال (١) استنجد به إسرائيلى فى معركة بينه وبين أحد المصريين فاندفع موسى دون أن يتبين من الظالم ومن المظلوم فوكز المصرى لمجرد أنه ليس من شيعته فقتله . ورغم ندمه وتوبته إلا أنه فى اليوم التالى مباشرة كاد أن يودى بحياة شخص آخر لولا أن سارع من كان على وشك أن يصبح الضحية الثانية فذكر موسى بجريمة الأمس ، ولفت نظره إلى أنه لو قتله اليوم لأصبح من معتادى الإجرام الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، وفى ذلك نقراً قوله تعالى : «ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين . فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يعطش بالذى هو عدو لهما قال

(١) تفاضى المفسرون القدامى عما سجله القرآن الكريم من مواقف لموسى عليه السلام تكشف عن سرعة اندفاعه وحدة انفعاله ، لكن الأستاذ سيد قطب رحمه الله أشار إلى ذلك صراحة ، فقرر فى تفسير سورة القصص ما نصه : هذه الارتعاشة العنيفة ، وقبلها الاندفاع العنيف تصور لنا شخصية موسى عليه السلام شخصية انفعالية حارة الوجدان قوية الاندفاع (فى ظلال القرآن) المجلد الخامس - صفحة ٢٦٨٢

يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالامس إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين» (١)

والى قوة موسى وفتوته أشارت إحدى امرأتى مدين وهى تقول لآبيها «يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين» (٢) وفى تفسير هذه الآية يأتى القرطبى برواية عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما استقى الرعاة غطوا على البئر صخرة لا يقلعها إلا عشرة رجال فجاء موسى فاقتلعها فاستقى ذنباً واحداً لم تحتج غيره فسقى لهما (٣)

وفى وصف رسول الله ﷺ لموسى ما يفيد أنه كان فارح الجسد قوى البنيان ، ففيما يرويه ابن اسحاق فى حديث المعراج يقول : إن رسول الله ﷺ قال : ثم أصعدنى - أى جبريل - إلى السماء السابعة فاذا فيها رجل آدم طويل أقى ، كأنه من رجال شنوءة فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا أخوك موسى بن عمران .

هكذا كان موسى قبل بعثته ، وهكذا استمر بعدها كما ستكشف عنه الأحداث ، أما عند تكليفه بالرسالة فتلقى الآيات أضواء كاشفة على جوانب من شخصيته جديدة بالملاحظة والتسجيل ، فعندما أحاطته الظلمات فى صحراء سيناء ولم يعد يدرى أنفضى به خطواته إلى السلامة أم إلى الهلاك رأى ناراً فاتجه

(١) سورة القصص - الآيات من ١٥ - ١٩ (٢) سورة القصص - آية ٢٦

(٣) تفسير القرطبى . الجزء الثالث عشر - صفحة ٢٦٩

إليها وهو يقول لأهله « امكثوا إنى آتست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون » ^(١) فهدفه كان واضحاً ومحددأ : خبر يعرف به مكانه من الأرض ويحدد بالتالى اتجاهه أو جذوة من النار يستدفىء بها هو وأهله ، لكنه إذ اقترب من النار نودى « أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولئى مدبراً ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهاتان من ربك إلى فرعون ومثله إنهم كانوا قومأ فاسقين » ^(٢)

ذلك هو الاتصال الاول لموسى بالسماء وفيه كان التكليف المباشر له بالرسالة ، لكن المؤكد أن ذلك قد تم بطريقة تختلف عن مثيلاتها بالنسبة لغيره من الرسل ، فنحن على سبيل المثال نعرف أن اتصال الوحي بمحمد ﷺ تم بواسطة تمثلت فى جبريل ، وبدأ بالأمر « اقرأ باسم ربك الذى خلق » بينما لانكاد نلمح متى وكيف بدأ اتصال الوحي بإبراهيم عليه السلام ، والغالب أنه لم يتم بواسطة ، بل - كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده فى تعريفه للوحي - بعرفان وجده إبراهيم فى نفسه مع اليقين بأنه من عند الله ، وذلك بعدما غربت الشمس فقال إبراهيم « إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض

(٢) سورة القصص - الايات ٣٠ - ٣٢

(١) سورة القصص - آية ٢٩

حنيفاً وما أنا من المشركين » ^(١) فللتكليف بالرسالة وسائل مختلفة بما يتلاءم مع قدرات كل رسول واستعداداته ، وبالنسبة لإبراهيم الذى كان مشغول الفكر بالخالق ، ملهوف القلب للتعرف عليه فإن العرفان أو الإلهام الذى تلقاه كان كافياً ، أما بالنسبة لموسى عليه السلام فقد كان فى طريقه إلى النار بدوافع شخصية بحتة هى حرصه على سلامته وسلامة أهله ، ومن ثم فالاستعداد النفسى للتلقى لم يكن متوافراً ، ولهذا السبب من جهة ولطبيعته الانفعالية من جهة أخرى فلم يكن من المجدى أن يتم الوحي بعرفان يجده فى نفسه ، كما لم يكن من المأمون أن يتم بواسطة ملك من عند الله بل كان من الحتمى أن يبدأ بالنداء المباشر « أن يا موسى » حتى يعلم أن الخطاب موجه إليه عن هو بأمره عليم « إني أنا الله رب العالمين » حتى يعرف صاحب الخطاب ، ثم نلاحظ فى هذا اللقاء الأول لموسى بربه ملاحظة سريعة كأنما القصد منها منعه من التفكير إلا بعد أن تجبه الآيات وتغلا سمعه وبصره ، فبعد النداء « أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين » صدر الأمر « أن ألق عصاك » لكنه إذ رآها حية تسعى أطلق ساقيه للريح فى هروب بلا رجعة ، لكن الأمر صدر له مرة أخرى وبالاسم « يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين » وإذا كانت آية العصا قد ألقت الروح فى قلبه فهناك آية أخرى تعيد له شعاع

(١) سورة الأنعام - آية ٧٨ ، ٧٩

نفسه ، فصدر له الأمر من جديد « اسلك يدك فى جييك تخرج
بيضاء من غير سوء » .

هذه الاحتياطات كلها فى لحظة التكليف أو التشريف بالرسالة
إنما تمثل أقصى درجات اللطف والرفق بموسى والتحسب لطبيعته
وقدراته ، ورغم ذلك فعندما استمع إلى قول الله عز وجل
«فدانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه» فإن رد فعله الأول
تمثل فى محاولة للتوصل من المهمة ، قال «رب إنى قتلت منهم
نفساً فأخاف أن يقتلون» (١)

ولقد مر المفسرون القدامى والمحدثون بهذه الآية مرور الكرام
فلم يستوقفهم أن موسى كان فى طريقه بالفعل إلى مصر فلما
صدر له الأمر بالتوجه إلى فرعون مصر حاول الاعتذار بأن هذه
المهمة قد تكلفه حياته ، لكن ابن كثير خرج على هذا الإجماع
وارتأى أن فى الآية ما يشبه التردد فى حمل الرسالة فتصدى
لتبريره فقرر أن موسى قال ما قال لأنه «كان يزمع زيارة مصر
فى خفية من فرعون وقومه» ونفس المعنى استشعره الأستاذ سيد
قطب وجاهد أيضاً لنفيه ، فأوضح أن موسى قال « رب إنى
قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون » لا ليعتذر ولا
ليتقاعس ، ولا لينكص ، لكن ليحتاط للدعوة ، ويطمئن إلى

(١) سورة القصص - آية ٢٣

مضيها فى طريقها لو لقى ما يخاف ، وهو الحرص اللائق بموسى
القوى الامين (١)

وبالنسبة للتبرير الذى قدمه ابن كثير فمردود عليه بأن موسى
قضى فى قصر الفرعون كل طفولته وصدر شبابه ، وقد عايره
الفرعون بذلك عندما خاطبه بلهجة المن والاستكبار « ألم نريك
فيما وليدأ ولبثت فينا من عمرك سنين » (٢) والمؤكد أن ذلك قد
أتاح له أن يصبح من الشخصيات العامة سواء بين المصريين أو
الإسرائيليين ، وبالتالي فلم يكن من المتصور أن يغيب وسط
الزحام وتتم الزيارة فى خفية من فرعون وملئه .

أما ما ذكره الأستاذ سيد قطب من أن هدف موسى كان
الاحتياط للدعوة والاطمئنان إلى مضيها فى طريقها .. فإن
الاحتياط لا يتناسب مع شخصية وصفها الأستاذ سيد قطب -
ويحق - بأنها حارة الوجدان قوية الاندفاع ، وأما الاطمئنان إلى
مضى الرسالة فى طريقها إذا ما أصاب الرسول ما يكره ، فذلك
ما لا شأن للرسول به ، وفى هذا المعنى يقول عيسى عليه السلام
« وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت
الرقيب عليهم » (٣)

(١) فى خلال القرآن . المجلد الخامس - صفحة ٢٦٩٢

(٢) سورة المائدة - آية ١١٧

(٣) سورة الشعراء - آية ١٨

إذن فموسى كان فى طريقه إلى مصر ، فلما صدر له التكليف بمقابلة فرعون مصر حاول الخلاص من المهمة متعللاً بجريمة قتل انقضت عليها عشر سنوات ، لكنه سرعان ما تبين ضعف حجته وأن عليه أن يصدع بالأمر فالتمس إشراك أخيه هارون معه .

وهذا الذى ندعيه لا يقدر فى موسى عليه السلام ولا ينال من قدره ، فرسل الله ليسوا على شاكلة واحدة وخاتم النبوة لا يخلقهم خلقاً جديداً ، واستيعابهم لما يلقى إليهم وإبلاغهم له إنما يتم من خلال القدرات النفسية والخلقية لكل رسول .

وإذا كنا قد أوضحنا من قبل كيف أن طبيعة موسى عليه السلام قد فرضت عند بداية التكليف بالرسالة تدابير واحتياطات غير عادية ، فإننا نضيف هنا أن هذه الطبيعة قد فرضت أمراً آخر غاية فى الخطورة والأهمية هو استبعاد الملائكة كوسطاء ، وإجراء الاتصال مباشرة بين ذات الله سبحانه وتعالى وبين موسى ، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة فى قوله تعالى «وكلم الله موسى تكليماً» (١) وأيضاً «يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى» (٢) فهذا الاتصال المباشر كان الوسيلة الملائمة لموسى والمجدية مع من له مثل خلقه وطباعه ، وتلك مشيئة الله وحكمته ، المواءمة بين الرسول والرسالة والمرسل إليهم .

(١) سورة النساء - آية ١٦٤

(٢) سورة الأعراف - آية ١٤٤

ولنواصل رحلتنا مع موسى بعد أن كلمه الله وكلفه وأصبح رسولاً نبياً ، ولقد سبق أن ألمحنا إلى أنه استمر بعد الرسالة على ما كان عليه قبلها ، ودليلنا على ذلك ما سجله القرآن الكريم من أنه عليه السلام كان فى لقاء ربه واستمع إلى قوله تعالى « يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوها بأحسنها » (١)

فى هذا الموقف المفعم بالإشراقات والعطايا الإلهية يعلم موسى أن قومه قد صنعوا من حليهم عاجلاً من الذهب اتخذوه إلهاً فأسرع إليهم وقد تملكه الغضب وأفقده الانفعال السيطرة على نفسه فعنفهم واشتد عليهم ، وأطاح فى ثورته بالألواح التى فيها شريعة الله وحكمه ، وفيها . . موعظة وتفصيلاً لكل شىء . . ثم انقض على أخيه يجره من رأسه ولحيته ، وإلى السامرى الذى أغرى الإسرائيليين بهذه الفتنة التفت موسى فأصدر أمراً بعزله وإبعاده ، ثم استدار إلى العجل الذى عبدوه فأشعل فيه ناراً ، ولم يهدأ إلا بعد أن نثر رماده وبدده فى غياهب البحر . وفى هذا العنف المتصل نقرأ قوله تعالى : « ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بشما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم

(١) سورة الاعراف - آية ١٤٤ ، ١٤٥

وَألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه . . » ^(١) ثم استطرد
 « . . يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن أفعصيت
 أمرى . قال يئزوم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إننى خشيت أن
 تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى . قال فما
 خطبك يا سامرى . قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت
 قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى . قال
 فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن
 تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم
 لتسفنه فى اليم نسفاً » ^(٢)

فالصفات الانسانية لشخصية موسى عليه السلام قبل الرسالة
 صاحبته بعدها ، وهى التى تحكم فى تصرفاته وحددت له ردود
 أفعاله . .

ولعله من المناسب ، وقد أحطنا بكثير من الملامح الشخصية
 لموسى عليه السلام أن نقارن بينه وبين إبراهيم عليه السلام ،
 فتلك المقارنة سوف تتيح لنا معرفة أعم وأشمل ، فضلاً عن أنها
 ترتبط بما نحن بصددده ارتباطاً وثيقاً .

إبراهيم كان منظم التفكير ، قوى الحجة متوقد الذكاء ، عندما
 جابه قومه لم تكن بين يديه معجزة خارقة ، بل جادلهم بمنطق

(٢) سورة طه - الآيات من ٩٢ - ٩٧

(١) سورة الاعراف - آية ١٥٠

حصيف ولوى أعناقهم بحجة قاطعة . أما موسى فسلحه كان شدة فى الأسر وقوة فى الجسم لكنها شدة بلا منطق وقوة بلا حجة ، لذا فقد احتاج الأمر إلى تعزيزه بتسع آيات بالإضافة إلى أخيه يشد أزره .

إبراهيم عليه السلام أهّل نفسه لحمل الرسالة ، واعتمد على وسائله الذاتية للانخراط فى سلك الموحدين فنظر وفكر ، وأصاب وأخطأ ، حتى ليتمكن القول إن الوحي عندما خرج له من السماء وجده يقف منتظراً بالباب . أما موسى عليه السلام فما فكر أن يكون من المنذرين ، ولاخطر على باله أن يكون رسولا نبيا ، وعندما كُلف بحمل الرسالة كان الأمر بالنسبة له مفاجأة غير متوقعة وغير مرغوبة ، وعندما أذعن تعددت مطالبه : احلل عقدة من لساني ، واجعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى . (١)

هكذا فنحن حيال رسولين وإن اتحدت صفتها وهدفها إلا أن الاختلاف بينهما كان شديداً ، وهو اختلاف مرده تباين شخصية كل منهما عن شخصية الآخر ، هذا التباين كان قائماً قبل بعثتهما وظل قائماً بعدها ، لذلك اختلفت أقوال كل منهما عن الآخر وجاءت أفعالهما على طرفى نقيض فيما عدا موقفاً واحداً قارب التشابه فيه بينهما شكلاً وموضوعاً درجة التطابق ، وذلك حيث

(١) سورة طه - الآيات ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢

قال إبراهيم :

«رب أرني كيف تمحي الموتى» .

وقال موسى :

« رب أرني أنظر إليك»

أما قول إبراهيم فقد تعرضنا له من قبل .

وأما قول موسى فقد جاء في قوله تعالى «ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين» (١)

فما هي مبررات طلب موسى عليه السلام ؟ وما الذي كان يسعى إليه ؟

وهل هذا التشابه في صياغة السؤال ، وفي أسلوب طرحه يعكس تشابهاً في الموضوع والهدف ؟

المؤكد أن لكل من الطرفين دوافعه ومبرراته ، لكن المفسرين جميعاً كما تابعوا الطبرى في الاهتمام بدراسة طلب إبراهيم عليه السلام رؤية إحياء الموتى فإنهم تابعوه كذلك في الإعراض عن تقديم دراسة موضوعية لطلب موسى رؤية ربه ، وهو أمر غريب

(١) سورة الأعراف - آية ١٤٣

يزداد وجه الغرابة فيه عندما يقارن إعراضهم هنا بإصرارهم هناك على التفتيش فى صدر إبراهيم وحماهم للكشف عن نواياه .

ولا يمكن الاعتذار بأن سؤال رب العزة (أو لم تؤمن) وإجابة إبراهيم «بلى ولكن ليطمئن قلبى» قد وضعها إبراهيم فى دائرة الشك وأثارا بالتالى حمية المفسرين ، فذلك ليس صحيحا من وجهين :

الاول : إن دوافع إبراهيم عليه السلام لم تنشأ عند قوله «ولكن ليطمئن قلبى» بل كانت قائمة قبل أن يسأل ربه رؤية إحياء الموتى ، وهى التى حدثت به إلى طرح سؤاله ، وهى التى دارت عنها وحولها أبحاث المفسرين ، كذلك فإن موسى عليه السلام قبل أن يقول «رب أرنى أنظر إليك» كانت له دوافعه ، وهى التى أطلقت هذا السؤال من خبايا نفسه ، لكن المفسرين لم ينتبهوا لها أو آثروا عدم الاقتراب منها .

الثانى : إن الحوار الذى دار بين رب العزة وبين إبراهيم عليه السلام من السؤال (أو لم تؤمن) والإجابة «بلى ولكن ليطمئن قلبى» لم يكن متصوراً مثله بعد طلب موسى عليه السلام ، فالأول سأل عن أمر هين يسير ، أما الثانى فقد سأل عن أمر جليل عظيم ، وفضلاً عن ذلك فإن الأول لديه القدرة على صياغة الرد الدقيق المتوازن أما الثانى فلم يكن يملك هذه القدرة .

لقد أجمع المفسرون على أن رؤية إحياء الموتى التى طلبها إبراهيم عليه السلام لم تكن غاية فى ذاتها ، بل كانت وسيلة لتحقيق اطمئنان القلب ، لكن ذلك لم يكن حافزاً لأى منهم لمناقشة احتمال أن يكون طلب موسى كذلك ، لأنهم اقتدوا بالطبرى والتزموا بوجهة نظره فى الآية الكريمة وأجمعوا بشأنها على أمور منها :

- أن سماع موسى كلام ربه قد أثار شوقه إلى رؤياه .

- الاهتمام بموضوع «الرؤية» ذاته كأنما سجل القرآن الكريم قول موسى «رب أرنى أنظر إليك» لإثارة البحوث حول إمكانية رؤية الله سبحانه وتعالى فى الدنيا أو استحالة ذلك .

- بالنسبة لقول موسى بعدما أفاق من الصعق «سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين» اتفقت الآراء على أن :

«تبت إليك» من مسألتي إياك ما سألتك من الرؤية .

«وأنا أول المؤمنين» بك من قومى أن لا يراك فى الدنيا أحد إلا هلك ^(١) أو «أول المؤمنين» من قومى ، وقيل : من بنى إسرائيل فى هذا العصر ^(٢) .

وهذا الذى ذهب إليه المفسرون محل نظر .

(١) تفسير الطبرى . الجزء التاسع . من صفحة ٤٩ - ٥٦

(٢) تفسير القرطبى . الجزء السابع - صفحة ٢٧٩

فقولهم إن «طلب موسى كان شوقاً إلى رؤية ربه بعد ما سمع كلامه» مبنى على أن موسى لم يسمع كلام ربه قبل ذلك ، فالطبرى يروى عن موسى بن هارون قول السدى إن موسى عليه السلام لما كلمه ربه أحب أن ينظر إليه ، والقرطبي يقول (كلمه ربه) أى أسمعته كلامه من غير واسطة ، قال (رب أرني أنظر إليك) سأل النظر إليه واشتاق إلى رؤيته لما أسمعته كلامه (١) .

فى حين أن هذه لم تكن المرة الأولى التى يسمع فيها موسى كلام ربه ، فابتداء الوحى إليه تم بكلام سمعه من الله مباشرة ..
يا موسى إني أنا الله .

أما قولهم إن توبة موسى التى أعلنها بعد ما أفاق من الصعق إنما كانت لسؤاله الرؤية ، فهو لا يستقيم مع قولهم إن الشوق كان دافعه إلى ما طلب ، فشدة الشوق على أى وجه كانت لا تستدعى التوبة ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد فاتهم أن استجابة الله غير المباشرة لطلب موسى إنما تؤكد أن الرؤية لم تكن ذنباً يستتاب منه بل غاية مشروعة وجبت مراعاتها والعناية بها .

وأخيراً فإن تأويل المفسرين لقول موسى بعد ما أفاق «وأنا أول المؤمنين» بأن المعنى : أول المؤمنين بك من قومى أن لا يراك فى الدنيا أحد إلا هلك .. هذا القول مردود بأن إعلان « الإيمان »

(١) تفسير القرطبي . الجزء السابع - صفحة ٢٧٨

فى القرآن الكريم لم يأت مقيدا على نحو ما تأولوه بل جاء عاما
دون تخصيص .

وبغض النظر عما أفاض فيه المفسرون فقد اشتملت الآية التى
نحن بصدددها على :

طلب واضح وصريح من موسى «رب أرنى أنظر اليك»
ورد قاطع وبات باستحالة ذلك «لن ترانى» .

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فقد تفضل رب العزة
بعرض بديل آخر تحقق به لموسى ما يريد «.. ولكن انظر إلى الجبل
فإن استقر مكانه فسوف ترانى» ثم تجلى الله للجبل فخر موسى
صعقا .

ويؤول المفسرون الأمر على أن تجلى الله للجبل كان لمجرد
إقناع موسى بعجزه عن احتمال الرؤية وكان «لن ترانى» من الله
غير كافية ، فالقرطبى فى تفسير قوله تعالى «ولكن انظر إلى
الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى» يقول : ضرب له مثالا مما
هو أقوى من بنيتة وأثبت أى فإن ثبت الجبل وسكن فسوف ترانى
وإن لم يسكن فإنك لا تطيق رؤيتي (١)

والاستاذ سيد قطب عن ذات الآية يقول ، «قال : لن ترانى ثم
يترفق به الرب العظيم الجليل فيعلمه لماذا لن يراه .. إنه لا
يطيق»

(١) تفسير القرطبى . الجزء السابع - صفحة ٢٧٨

ولعله من المناسب قبل أن نناقش ما سلف ، أن نقارن طلب موسى عليه السلام بطلب مماثل لبنى إسرائيل سجله القرآن الكريم فى قوله تعالى «وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون»^(١)

فالواضح هنا أن طلب القوم لم يكن فحسب فوق طاقتهم بل ويخرج عن حدود المسموح لهم به كبشر ، لذلك فالرد عليهم تمثل فى ذلك العقاب العاجل العنيف ، فقد . . أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون .

أما بالنسبة لموسى الذى لم يكن يطبق الرؤية كغيره ، فإن استبدالها برؤيته للجبل وقد تجلى له الله إنما يؤكد :

- إن المشكلة لو اقتضت على عجز موسى عن احتمال الرؤية لكانت الإجابة بـ «لن ترانى» بالغة فى ذاتها دون ما حاجة لإقامة الدليل عليها . فتجلى الله للجبل لم يكن لإثبات عجز موسى ، بل كان استجابة لطلبه وتحقيقاً لمراده فى حدود ما يطيق وما يستطيع .

- إن الشوق لم يكن الدافع الوحيد لطلب موسى رؤية ربه ، لأنه لو كان كذلك لتعين إجابته أو رفضه ، أما تقديم البديل فلم يكن له محل .

(١) سورة البقرة - آية ٥٥

- إن الرؤية وإن كانت غاية في ذاتها وشرفاً للمؤمن ما بعده شرف ، إلا أنها بالنسبة لموسى كانت فوق ذلك وسيلة إلى غاية أخرى لم يفصح عنها موسى ، وقد ثبت من سياق الأحداث أن هذه الغاية كانت ضرورية ولازمة ، لأنها لو لم تكن كذلك لانتهى الموقف عند قوله تعالى «لن ترانى» ، لكن إنزال الستار عند هذا الحد لم يكن ليحسم المشكلة التى ثارت فى صدر موسى ، ولم يكن ليحقق له الغاية التى استهدفها من سؤاله .

وعلى ذلك فهناك تشابه بين طلب إبراهيم رؤية إحياء الموتى وطلب موسى رؤية ربه ، فالطلب فى الحالتين كان وسيلة إلى غاية محددة ، هذه الغاية - فى موقف إبراهيم - كشف عنها الحوار الذى دار بينه وبين ربه ، أما فى موقف موسى فإن الحوار وإن لم يكشف عنها إلا أن الأحداث قد تواصلت إلى أن حصل موسى على الدليل الحسى الذى حصل عليه إبراهيم من قبل .

ولقد سبق أن أشرنا إلى اختلاف كل من الرسولين الكريمين عن الآخر ، وهو اختلاف شمل مساحات شاسعة فى شخصية كل منهما ، ويبقى أن نشير إلى ما بينهما من اتفاق يأتى فى مقدمته اشتراكهما فى صفات البشر الأساسية بما فيها من نقاط الضعف والقوة ، فهم كغيرهم يخرجون من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ، ولا يملكون وسيلة للعلم سوى حواسهم التى لا

تتعامل إلا مع الماديات ، وبالتالي يشكل عالم الغيب بالنسبة لهم علامة استفهام كبيرة لا ضرر فى أن تبقى فى نفوس عامة المؤمنين دون إجابة قاطعة ، أما رسل الله فلا بد من حسمها بدليل يختاره كل منهم .

هذا الاختيار حدده إبراهيم عليه السلام فى قوله «رب أرنى كيف تحيى الموتى» .

وحده موسى عليه السلام فى قوله : «رب أرنى أنظر إليك» لكن الهدف من الاختيارين واحد ، هو اختراق حجب الغيب التماساً للدليل ينقطع معه قيام الشك أو احتمال قيامه .

من هنا كان اهتمام المولى اللطيف بعباده ، ليس بما أعلنه موسى - وهو مستحيل فى ذاته - بل بما أسره وهو «المعينة» التى استهدفها من الرؤية ، فتلک المعينة هى الوسيلة التى أتاحت لرسول الله لرفع إيمانهم بالغيب إلى درجة عين اليقين ، وسبيلهم إليها هو التماسها مباشرة من رب العزة .

بهذا يستقيم قول موسى بعد ما أفاق من الصعق «سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين» فإعلان التوبة هنا له ما يبرره ، لأن موسى عليه السلام بعد ما طلب وتحقق له ما أراد اعتقد أنه ما كان له أن يستسلم لخواطره البشرية ويسعى إلى ما سعى إليه . أما قوله «وأنا أول المؤمنين» أى أول من آمن عن رؤية ومعينة .

وهنا يشور تساؤل : إذا كان طلب كل من إبراهيم وموسى عليهما السلام قد نبع من نقاط الاتفاق بينهما وليس من مناطق الاختلاف ، فلماذا التمس أحدهما رؤية إحياء الموتى والتمس الآخر رؤية الله ؟

وفى الرد على ذلك فإن الغاية من الطلبين واحدة والهدف منهما واحد ، لكن اختلاف المقومات الأساسية فى شخصية كل من إبراهيم وموسى أدى إلى اختلاف ما اختاره كل منهما ، فإبراهيم عليه السلام ليس فقط صاحب حجة قوية ومنطق أخاذ ، بل هو بالإضافة إلى ذلك كيس فطن ، لبيب أريب ، عندما أراد أن يعاين عالم الغيب اختار الخطوة الأولى فيه ، واختياره ينطوى - دون شك - على ذكاء لمّاح وأدب ملحوظ .

أما موسى عليه السلام فقد تحدّد اختياره فى ظل طبيعته وظروفه

فبالنسبة لطبيعته : فإنه يفتقد لباقة إبراهيم عليه السلام وكياسته ومن ثمّ فالمتوقع إذا ما طاف به تساؤل عن الغيب أن يندفع إلى آخر المدى ، فلا يكتفى كإبراهيم بطلب رؤية إحياء الموتى أو الاطلاع على الجنة والنار ، بل يطلب رؤية قمة ذلك العالم الغيبى وهى ذات الله سبحانه وتعالى .

وأما بالنسبة لظروفه : فإن سماعه كلام الله أتاح له أن يتخطى من عالم الغيب مراحل الأولى ، وبالتالي فقد انحصر الغيب بالنسبة له فيما حجب عنه وهو رؤية الله ، وما كان لموسى عليه السلام مع ما أوثر عنه من شدة الاندفاع أن يكتفى بالدليل الحسى الذى تحقق له - سماع كلام الله - ومن ثم كان سعيه أن يجمع الرؤية إلى السماع كيما يصل إلى حالة «عين اليقين» التى يمتنع بعدها أن يجد الشك إلى قلبه سبيلا ، فهو قد اختار وطلب ، وتحقيق له ما أراد وهو . . يسمع ويرى ، فاليقين هنا لا يستند إلى أدلة متاحة ربما أفقدها التكرار بريقها وحجيتها ، بل يستند إلى دليل بعينه حدده كل رسول حسب رؤيته وقدراته . وذلك ما بينته قصة كل من إبراهيم وموسى عليهما السلام ، ويبقى أن نتابع قصة عيسى من خلال السرد القرآنى لنرى ما تسفر عنه الأحداث .

عيسى عليه السلام

وردت القصة مختصرة فى عدد قليل من السور ، ولم تستغرق فى أى منها سوى آيات معدودات ، ولا غرابة فى ذلك فعيسى عليه السلام مرسل إلى أهل كتاب هم اليهود «ورسولاً إلى بنى إسرائيل ..» ^(١) وهو لم يأت برسالة جديدة بل أتى ليجدد رسالة سابقة ويعيد أصحابها إلى العقيدة الصحيحة ، وهو لا ينفى ما قبله من كتاب بل يؤمن بالتوراة كتاب بنى إسرائيل ، وجاء .. ليرفع عنهم جانباً من العقوبات ، وليسجل لهم بعض الذى سبق تحريره عليهم «ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم ..» ^(٢)

وينحصر ما تم التركيز عليه فى القصة فى ولادة عيسى وحديثه وهو فى المهد ومعجزاته وأنه عبد لله ثم رفعه للسماء .
فبالنسبة لمولده نقرأ فى سورة آل عمران :

« إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين .
ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين . قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما

(١) سورة آل عمران - آية ٤٩

(٢) سورة آل عمران - آية ٥٠

يشاء ...» (١)

ونفس الموقف تسجله سورة مريم بشيء من التفصيل :

«واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً . قال إنما أنا رسول ربك لا هب لك غلاماً زكياً . قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ...» (٢)

أما عن حديثه عليه السلام وهو فى المهد فتسجله سورة مريم فى قوله تعالى :

«فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هارون منا كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً . فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً . قال إني عبدالله أتانى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركاً أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً» (٣)

(١) سورة آل عمران - الآيات ٤٥ - ٤٧
(٢) سورة مريم - الآيات ١٦ - ٢١
(٣) سورة مريم - الآيات ٢٧ - ٣٣

وفيما يختص بمعجزاته فتبسطها آيات سورة آل عمران في قوله تعالى :

« قد جئتمكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » ^(١)

أما عن نفى الألوهية عنه فنقرأ فى سورة المائدة :

«لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . . » ^(٢)

وأيضاً « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . . » ^(٣)

وعن ختام حياته نقرأ قوله تعالى :

« إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا . . » ^(٤)

ذلك هو معظم ما ورد عن القصة فى القرآن الكريم ، وكما أسلفنا فإن عدد السور التى أشارت إليها قليل والآيات المخصصة لها محدودة ، وهى فى مجموعها وإن كانت لا ترسم صورة واضحة لشخصية عيسى عليه السلام ، إلا أنها تؤكد أن ولادته

(٢) سورة المائدة - آية ٧٢

(٤) سورة آل عمران - آية ٥٥

(١) سورة آل عمران - آية ٤٩

(٣) سورة المائدة - آية ٧٥

دون أب كانت معجزة وأن وجوده كان آية ، وأن المعجزات التى جرت على يديه لم تكن من النوع المقيد - كعصا موسى - يستعملها إذا أعوزه الدليل فتقلب حية تسعى ، أو يؤمر - إن واجهته مشكلة - فيضرب بها فتشق له طريقاً فى البحر أو تفجر له من الصخر ينبوعاً ، بل إن معجزاته عليه السلام كانت أعم وأشمل ، فهو قادر على الإتيان بها كيفما شاء وكلما أراد طالما أعلن أن ما يجرى على يديه إنما يتم بقدرة الله وبإذنه .

تلك هى قصة عيسى عليه السلام كما وردت فى القرآن الكريم وما أوردناه منها هو معظم ما جاء عنها ، وهو لا يحتوى على أية تفصيلات عن تصرفاته أو شخصيته ، كما لم يشتمل على موقف يمكن تأويله على أنه محاولة للنفوذ من بين أستار الغيب التماساً لدليل يطمئن عليه القلب .

فهل خرج عيسى عليه السلام على القاعدة وارتفع إيمانه بالغيب إلى عين اليقين دون معاينة ؟ أم إنه طلبها كإبراهيم وموسى عليهما السلام لكن القرآن الكريم لم يسجلها له ؟

المؤكد أن عيسى عليه السلام لو طلب المعاينة لسجلها القرآن الكريم ، لكنه لم يفعل ، لأن الغاية من المعاينة هى حيازة دليل حسى يكتمل به الإيمان ويطمئن عليه القلب ، فى حين أن ولادته نفسها كانت معجزة ، ووجوده ذاته كان آية ، وبالتالي فلم يكن

له أن يتمسك لا بالقاعدة العامة التى تحتم الاعتماد على الحواس كوسيلة وحيدة لاكتساب العلم وبلوغ اليقين ، ولا بتتائج هذه القاعدة المتمثلة فى قصر الثقة على المحسّات ، ذلك أن التمسك بالقاعدة ، وبتتائجها سوف يؤدى - أول ما يؤدى - إلى التباس الأمر فى شأن عيسى ، فالحواس لا تقر مولوداً بلا أب ولا تعترف بوجوده .

وعلى ذلك فلو افترضنا جدلاً أن التساؤلات حول الغيب قد تدافعت فى صدر عيسى ، وانعكس ذلك فى حيرة عن الغيب وما بعد الموت ، فلم يكن له أن يعلن ما تسره نفسه ، فذلك يتعارض مع معجزة ميلاده ويتناقض مع آية وجوده .

لكن ذلك الوضع الخاص لعيسى عليه السلام لا ينفى عنه بشريته ، ولا يحميه من احتمالات أن تراوده التساؤلات كما فعلت مع كل من إبراهيم وموسى عليهما السلام ، وإذا كان الأول قد طلب للخلاص منها أن يرى إحياء الموتى ، وأن الثانى قد طلب لدفعها أن يرى الله ، فإن ظروف ميلاد عيسى عليه السلام قد سلّبت ذلك الحق لأن تفسير وجوده فى ضوء المعايير المادية - التى تطبقها الحواس وتستوعبها - غير ممكن ، ومن هنا فلم يكن له أن يسعى إلى ما سعى إليه كل من إبراهيم وموسى عليهما السلام .. لكنه بشر ، وما هى فرصة التماس الدليل تعرض نفسها عليه فماذا هو فاعل ؟

توضح آيات سورة آل عمران أن عيسى عليه السلام بعد ما عرض آياته على بنى إسرائيل وبين لهم دعوته فإنهم لم يكتفوا بالإعراض عنه ، بل وبسبب النية للمكر به والتآمر عليه ، وفى ذلك نقراً قوله تعالى :

« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله قال
الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » (١)

والراجع أن إيمان الحواريين لم يكن عن إعمال فكر أو تدبير رأى ، بل تم بفضل من الله ونعمة وذلك حسبما يكشف عنه قوله تعالى :

«واذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا
واشهد بأنا مسلمون» (٢)

وفى تفسير القرطبى يقول «أوحيت هنا بمعنى أمرتهم وقيل بينت لهم» (٣) وأكثر المفسرين على أن الوحي جاءهم إلهاما من الله .

فالمولى سبحانه وتعالى ألهم الحواريين وقذف فى قلوبهم الإيمان به وبعيسى فأمنوا .

والحواريون جماعة من بنى إسرائيل رأوا الخوارق والمعجزات

(١) سورة آل عمران - آية ٥٢

(٢) سورة المائدة - آية ١١١

(٣) تفسير القرطبى . الجزء السادس - صفحة ٢٦٣

تترى على يدى عيسى بن مريم ، كانوا معه وهو يحيل الأعمى مبصراً ويشفى المرضى وذوى العاهات ، استمعوا له وهو يكشف عما وراء الجدران من طعام معد أو مال مدخر ، شاهدوه وهو يخرج من القبور بعض ساكنيها ممن عفى عليهم الزمان أو وهو يعيد إلى الحياة من تم إعداده وتجهيزه للدفن .

رأى الحواريون ذلك جميعه أو عاصروه لكن الإيمان لم يدخل قلوبهم إلا عندما استنصرهم عيسى فأوحى الله إليهم فآمنوا ووثقوا بإيمانهم بإشهاد الله عليه . فما معنى طلبهم بعد ذلك ذليلاً دون ما أتيح لهم بالفعل ، وهو ما سجله القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين »^(١)

ولنطالع أقوال المفسرين فى هذه الآية :

ينقل القرطبى فى تفسيره الرأى التالى :

«وقيل المعنى : هل يقدر ربك ؟ وكان هذا السؤال فى ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل ، ولهذا قال عيسى فى الجواب عند غلظهم وتجويزهم على الله ما لا يجوز «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين» أى لا تشكوا فى قدرة الله تعالى ، ثم يعقب القرطبى على هذا الرأى

(١) سورة المائدة - آية ١١٢

بقوله : وهذا فيه نظر ، لان الحوارين خالصان الانبياء ودخلاؤهم
وانصارهم كما قال «من انصارى الى الله قال الحواريون نحن انصار الله» .

ويضيف

« .. إنه يجور أن يقال إن ذلك - أى طلب المائدة - ممن كان معهم » ثم
يقول «وقيل : إن القوم لم يشكوا فى استطاعة البارئ سبحانه لانهم
كانوا مؤمنين عالمين ، وإنما هو كقولك للرجل : هل يستطيع فلان أن
يأتى ، وقد علمت أنه يستطيع ، فالمعنى : هل يفعل ذلك ، وهل يجيبني
إلى ذلك أم لا ؟ وقد كانوا عالمين باستطاعة الله تعالى لذلك ولغيره علم
دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك»

ثم يعلق القرطبي على ما سلف بقوله «وهذا تأويل حسن
وأحسن منه أن ذلك كان من قول من كان مع الحوارين» (١)

أما الطبرى فإنه يركز على اختلاف القراء فى قراءة قوله تعالى
«هل يستطيع ربك» ويقول :

قرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين «هل تستطيع» بالثاء «ربك»
بالنصب ، بمعنى : هل تستطيع أن تسأل ربك ، وهل تستطيع أن تدعو
ربك .. وقالوا : لم يكن الحواريون شاكين أن الله تعالى ذكره قادر أن
يتزل عليهم ذلك ، وإنما قالوا ليعسى : هل تستطيع أنت ذلك ؟

ثم يضيف

(١) تفسير القرطبي . الجزء السادس صفحة ٣٦٤ وما بعدها

«وأولى القراءتين عندى بالصواب قراءة من قرأ ذلك «هل يستطيع» بالياء
«ربك» برفع الرب ، بمعنى : هل يستجيب لك إن سألته ذلك ، ويطيعك
فيه ؟ وإنما قلنا ذلك أولى القراءتين بالصواب لما بينا قبل من أن قوله «إذ قال
الحواريون» من صلة إذ أوحيت ، وأن معنى الكلام : وإذ أوحيت إلى
الحواريين أن آمنوا بى ورسولى «إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل
يستطيع ربك» فبين إذ كان ذلك كذلك ، أن الله تعالى ذكره قد كره منهم
ما قالوا من ذلك واستعظمه ، وأمرهم بالتوبة ، ومراجعة الإيمان من قبلهم
ذلك ، والإقرار لله بالقدرة على كل شيء وتصديق رسوله فيما أخبرهم
عن ربهم من الأخبار .

ثم يقارن الطبرى بين سؤال الحواريين وبين فقير يطلب من
رسوله أن يسأل له ربه أن يغنيه ، أو إن عرضت به حاجة أن يسأل
له ربه أن يقضيها . . ثم يقول : «إن ذلك سؤال ذى حاجة
عرضت له إلى ربه ، فسأل نبيه مسألة ربه أن يقضيها له» وإن
طلب الحواريين لم يكن كذلك لأن :

«خبر الله تعالى عن القوم يئىء بخلاف ذلك ، وذلك أنهم قالوا
لعيسى إذ قال لهم : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها
وتعلمن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ، فقد أنبأ هذا عن قبلهم أنهم لم
يكونوا يعلمون أن عيسى قد صدقهم ، ولا اطمأنت قلوبهم إلى حقيقة
نبوته ، فلا بيان أبين من هذا الكلام فى أن القوم كانوا قد خالط قلوبهم
مرض ، وشك فى دينهم وتصديق رسولهم ، وإنهم سألوا ما سألوا من
ذلك اختباراً» (١)

(١) تفسير الطبرى . الجزء السابع - صفحة ١٣٠

وقد مال الزمخشري في تفسيره لتجريح إيمان الحواريين كما
فعل الطبري فهو يقول :

فإن قلت كيف قالوا (هل يستطيع ربك) بعد إيمانهم وإخلاصهم (قلت)
ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص ، وإنما حكى ادعاءهم لهما ثم أتبعه
قوله : إذ قالوا ، فإذن إن دعواهم كانت باطلة وإنهم كانوا شاكين ،
وقولهم : هل يستطيع ربك ، كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين
لربهم ، وكذلك قوله عليه السلام لهم معناه : اتقوا الله ولا تشكوا في
اقتداره واستطاعته ولا تقترحوا عليه ولا تتحكموا ما تستهون من الآيات
فتهلكوا إذا عصيتم بعدها (١)

ذلك هو مجمل ما ورد في تفسير الآية ، والواضح أن
استعمال الحواريين في طلبهم لأداة الاستفهام «هل» والفعل
«يستطيع» قد أثار أمام المفسرين مشكلة تعذر حلها ، ثم ما لبثت
حدة هذه المشكلة أن تضاعفت نتيجة للتتابع والارتباط بين آية (إذ
أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى . .) وآية (إذ قال
الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة
من السماء) .

ففى الآية الأولى أمر إلى الحواريين بالإيمان واستجابة منهم
وإشهادهم الله على إيمانهم ، وفى الثانية طلب يتعارض مع
الإقرار الذى أعلنوه والشهادة التى التمسوها ، وللخروج من هذا
المأزق قدم المفسرون التأويلات الآتية .

(١) تفسير الكشاف للزمخشري . المجلد الأول - صفحة ٢٨٠

التأويل الاول : إن طلب الحواريين كان فى ابتداء إيمانهم ، أى قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل .

والقرطبى الذى نقل هذا رأى رد عليه بقوله «وهذا فيه نظر لأن الحواريين خلصان الأنبياء ودخلواهم» ، وفضلا عما رد به القرطبى فإننا نضيف : إن الإيمان الذى استجاب له الحواريون وأعلنوه لم يكن إيمانا جزئيا ولا محدودا بل كان من البداية تاما وكاملا .

التأويل الثانى : وهو ما اطمأن إليه القرطبى ، وهو : إن طلب المائدة لم يصدر عن الحواريين ، بل ممن كان معهم .
وسياق الآية ضد هذا رأى لذلك لم يشارك القرطبى فيه أى من المفسرين .

التأويل الثالث : أتى به الزمخشري ، وأورده الفخر الرازى ضمن أقواله فى الآية ، وهو : إن الإقرار للحواريين بالإيمان فى قوله تعالى « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى ورسولى قالوا آمنا » لم يرد عن الله عز وجل بل عنهم أنفسهم ، وإنهم لم يكونوا جادين فى ذلك ، بل كانوا مدعين .

ويتعارض هذا رأى مع الأمر لهم من الله بالإيمان والثابت فى قوله تعالى « وإذ أوحيت إلى الحواريين » فضلا عن أن الله جل شأنه لم يكن ليسجل التماسهم شهادته « . . . واشهد بأننا مسلمون » لو لم يكونوا خالصى النية صادقى الإيمان .

التأويل الأخير : قدمه الطبرى ، وهو : إن قوله تعالى «إذ قال الحواريون» من صلة (إذ أوحيت) بمعنى أن الله قد أوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا بعدما سألوا عيسى (هل يستطيع ربك) أى إن طلب المائدة تم أولاً ثم أعقبه وحى الله إليهم بالإيمان .

وطبقاً لترتيب الأحداث على هذا النحو يصبح الحواريون قوماً غير مؤمنين سألوا عيسى عما إذا كان ربه يستطيع أن ينزل عليهم مائدة فأوحى الله إليهم أن يؤمنوا به وبرسوله فآمنوا ، لكن الطبرى عاد بعد ذلك وطعن فى إيمان الحواريين مستدلاً على ذلك من قولهم «نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا» .

فكان تقديم الطلب من جانب الحواريين ، وتأخير الوحى من الله إليهم بالإيمان لم يحقق ما استهدفه الطبرى من رفع التناقض بين طلبهم للمائدة وبين إقرارهم بالإيمان ، فالترتيب الذى رجحه للأحداث يقتضى افتراض صدقهم وصحة اعتقادهم ، فما معنى أن يشكك بعد ذلك فى إيمانهم ؟

هذا الخلط والاضطراب فى تأويلات المفسرين يرجع فى معظمه إلى اعتقادهم أن طلب الحواريين يتعارض مع إقرارهم بالإيمان ، وهذا الذى اعتقدوه غير صحيح ، والأمر ليس على النحو الذى ذهبوا إليه ، فكما أن طلب إبراهيم عليه السلام رؤية إحياء الموتى لم يتعارض مع إقراره السابق « ربى الذى يحيى ويميت » فكذلك

فإن طلب الحوارين للمائدة لم يتعارض مع إقرارهم السابق بالإيمان .

ولقد أشار القرطبي إلى ذلك صراحة في تفسيره كأحد وجوه الرأى فى الآية رغم أنه لم يرجحه ولم يأخذ به ، قال :

وقيل : إن القوم لم يشكوا فى استطاعة البارى سبحانه لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين . . وقد كانوا عالمين باستطاعة الله تعالى لذلك ولنغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم المعاينة كذلك ، كما قال إبراهيم عليه السلام «رب أرنى كيف تحمى الموتى» وقد كان إبراهيم علم ذلك علم خبر ونظر ، ولكن أراد المعاينة التى لا يدخلها ريب ولا شبهة ، لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات ، وعلم المعاينة لا يدخله شئ من ذلك ولذلك قال الحواريون «و تطمئن قلوبنا » كما قال إبراهيم ولكن ليطمئن قلبى (١)

وهذا الذى جاء به القرطبي صحيح ، لكنه يحتاج إلى بعض التحديد ، فحديثه عن (علم الخبر الذى تدخله الشبهة ، وعلم المعاينة الذى يطمئن عليه القلب) لا يجوز الاحتجاج به فى جانب الإيمان بوجود الله . فالحواس التى أنعم الله بها على الإنسان تؤدى بذاتها إلى الإقرار بوجود الخالق ، وكما سبق أن أوضحنا ،

(١) تفسير القرطبي . الجزء السادس - صفحة ٣٦٤ وما بعدها

فإن طلب الدليل الإضافى هنا مرفوض سواء من البشر أو الرسل .
أما الإيمان بما بعد الموت من بعث وحساب فهو الذى يقوم على
الدلالة والخبر ، وتلك حالة وإن كانت تناسب عامة البشر إلا إنها
لا تليق بمن اصطفاهم الله واجتباهم ، ومن ثم كان السعى من
جانبهم للمعينة التى تورث اليقين .

بهذا التحديد لما جاء به القرطبى وأشار إليه أيضا الفخر الرازى
فى تفسيره ، فإن إقرار الحواريين بالإيمان (قالوا آمنا) يجب صرفه
إلى جانب الإيمان بوجود الله ووحدانيته ، أما طلبهم المائدة فقد
كان التماساً لدليل حسى على وجود عالم الغيب ، أو كما قال
القرطبى : إنهم كانوا .. عالمين - بذلك - علم دلالة وخبر
فأرادوا علم المعينة .

وهنا قد يثور اعتراضان .

الأول : إن التزام المرسل إليهم بالإيمان بالغيب يتحقق بالمعجزة
التي تجرى على يدى رسولهم ، وإنه ليس لهم اقتراح معجزة على
هواهم .

الثانى : إن طلب المائدة لم يكن له ما يبرره ، فلقد رأى
الحواريون من الخوارق والمعجزات ما يفوق إنزال مائدة من
السماء .

وفى الرد على الاعتراض الأول فإن وحى الله إلى الحواريين

قد رفعهم فوق عامة البشر درجة ، فحق لهم طلب الدليل ، لكنهم كانوا دون مقام الرسل بدرجات ، وبالتالي فلم يكن لهم أن يطلبوا من الله مباشرة ، كما لم يكن لهم أن يشتموا في الطلب ، فلكل درجات ، وما يجوز للرسول لا يجوز لغيره وإذا كان المولى عز وجل لم يعترض على طلب رسله رؤية إحياء الموتى أو رؤية ذاته جل جلاله ، فإن مثل ذلك على البشر محظور . فمكانة إبراهيم عليه السلام أتاحت له أن يسأل مباشرة «رب أرني كيف تحيي الموتى» أما الذى مر على القرية الخاوية فلم يكن له أن يطلب ، وما صدر عنه «أتى يحيى هذه الله بعد موتها» كان من قبيل التفكير بصوت مسموع ، وبالمثل لما سأل موسى رؤية ربه حظى طلبه بالعناية والتقدير ، لكن عندما تجرأ اليهود وطلبوا رؤية الله كان الموت صعقاً هو الرد الذى تلقوه على تجاوزهم المدى .

أما عن الاعتراض الثانى ، فالثابت أن رسل الله أنفسهم الذين وافاهم الوحي وجرت على أيديهم المعجزات قد التمسوا الدليل الذى يحقق لهم علم اليقين أو عين اليقين ، فللنفس البشرية نوازعها ودوافعها فى الإعراض عن الممكن والمتاح والتعلق بما تشتهي وتتمناه . فلقد أشعل قوم إبراهيم له نارا ، وعندما حمى سعيها ألقوه فيها لكن الله أبطل قدرة النيران على الإحراق وجعلها برداً وسلاماً إلى أن خرج منها إبراهيم تعلقوه السكينة

والاطمئنان .

وتلك معجزة بالغة الدلالة على عظمة المولى وقدرته المطلقة .
وهكذا كانت معجزات موسى وعيسى عليهما السلام

لكن المشكلة فى تلك المعجزات أنها أتاحت للرسول دون طلب منه وجرت خلال سيادة صفته النبوية ، ولم تتحقق فى الأوقات التى تسود فيها صفة الرسول البشرية ، وعلى وجه التحديد فى تلك اللحظة التى يطوف فيها التساؤل عن البعث وما بعد الموت ، وتثور بالتالى الحاجة إلى حيازة الدليل الذى تستقر به النفس ويطمئن عليه القلب .

وبالنسبة للحواريين ، فلقد آمنوا بوجود الله ما فى ذلك من ريب ، وإيمانهم فى هذا الجانب يستند إلى الإقرار المسطور فى فطرتهم وإلى وحى الله إليهم وبالأدلة الحسية التى يطالعونها فى وجه الأرض وصفحة السماء ، كما آمنوا بما تنطوى عليه دعوة عيسى من بعث وجزاء ، لكنه إيمان يعوزه الدليل ، ولأن وحى الله إليهم قد رفعهم درجة فإن طلبهم للمائدة كان مشروعاً وجائزاً، لكن عيسى عليه السلام فوجئ بالسؤال (هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء) واستشعر الهدف منه وتغلبت عليه ظروف ميلاده وأملت عليه الرد فرفض الوساطة التى التمسوها فى مقاطعة حاسمة من جانبه قال «اتقوا الله إن كنتم

مؤمنين» لكنهم كانوا مقتنعين بحقهم في حياة الدليل ، وأنهم لم يتجاوزوا المسموح لهم به ، قالوا : نريد أن نأكل منها وتطعمن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين^(١)

« . . الأكل من المائدة والشهادة على نزولها ، واطمئنان القلب والعلم بصدق عيسى » .

تلك هي مبررات الحوارين لإنزال المائدة ، والمؤكد أن « الأكل منها والشهادة عليها » كان تكراراً لطلبهم الأصلي غير المبرر «إنزال المائدة» أما الرغبة في « اطمئنان القلب والعلم بصدق رواية عيسى عن الغيب» فهي الغاية المستهدفة من الطلب . ولقد اضطر الحواريون إلى الإفصاح عن الوسيلة والغاية لسببين :

الأول : ليبينوا لعيسى عليه السلام أن طلبهم المائدة لا يتعارض مع إيمانهم ، وذلك رداً منهم على قوله « اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » . .

أما السبب الثاني فإن طلبهم للمائدة كان كطلب إبراهيم عليه السلام رؤية إحياء الموتى ، كلاهما كان ستاراً لهدف آخر ، وفيما يختص بإبراهيم فعندما سأله ربه (أو لم تؤمن) كان عليه أن يعلن عن هدفه الحقيقي فقال « ليطمئن قلبي » وكذلك الأمر بالنسبة للحواريين بعدما عارضهم عيسى أول مرة لم يكن أمامهم إلا

(١) سورة المائدة - آية ١١٣

الكشف عما فى صدورهم فقالوا «لتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا» .

عندئذ اقتنع عيسى وقال :

« . . اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين» ^(١)

ولأن الحواريين بلغوا آخر المدى فى المتاح لعامة البشر ، فقد أصبح عليهم أن يتحملوا عاقبة قرارهم ، وهى كما حددها المولى عز وجل فى قوله تعالى « . . إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين» ^(٢)

هذه الشدة فى المؤاخذه ، وهذا الوعد الوعيد ليس إلا نتيجة لاقتحام الحواريين العقبة وتعريض أنفسهم - بطلب المائدة - لبلاء عظيم . وهو يؤكد كل ما ذكرناه آنفاً عن أن طلبهم المائدة إنما كان محاولة لاسترقاق النظر إلى عالم الغيب ، يترتب عليها بالضرورة ارتفاع إيمانهم به إلى درجة عين اليقين ، ويتحقق لهم بذلك - وهم بشر - إيمان كإيمان الأنبياء ، فالإيمان بوجود الخالق ووحدانيته جاءهم وحياً من الله والإيمان بوجود دينا الغيب ثبت لهم بالدليل الحسى ، فجدير بمن يكفر منهم بعد ذلك أن يفرد له عقاباً خاصاً لأنه حار دليلاً لم يتيسر لغيره من عامة البشر .

(١) سورة المائدة آية ١١٤

(٢) سورة المائدة آية ١١٥

هذا عن الحوارين .

أما عن عيسى عليه السلام ، فبعد ما كشف الحواريون عن هدفهم الحقيقي من إنزال المائدة «تطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا» فقد أصبح واضحاً أمامه أن طلبهم ليس إلا محاولة للثبوت من وجود عالم الغيب ، فهل واصل تصديه لهم بما يتمشى مع معجزة ميلاده ، أم استجاب لهم بما يتلاءم مع بشريته ؟

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضى استعراض الآيات الخاصة بطلب الحوارين حسبما سجلها القرآن الكريم .
فطلبهم ورد فى قوله تعالى :

« إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين »^(١)
ومبرراتهم جاءت فور قوله لهم «اتقوا الله إن كنتم مؤمنين»
قالوا :

«نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين»^(٢)

بعد ذلك فإن الآية التالية مباشرة تكشف أن عيسى عليه السلام لم يتردد ولو للحظة ، بل انحاز إلى الحوارين وتحمس لطلبهم

(٢) سورة المائدة آية ١١٣

(١) سورة المائدة آية ١١٢

وسارع برفع أكف الضراعة إلى الله .

« اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا
وأخربنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين » .

والملاحظ على الآية الأخيرة :

أن عيسى عليه السلام لم يعلن فحسب عن الغاية والوسيلة ،
كما فعل الحواريون ، بل إنه زاد الأمر إيضاحاً فقرر صراحة أن
الهدف من طلب المائدة هو أن تكون . . آية .

أنه عليه السلام لم يكن له طلب الدليل ابتداء ، كما لم يكن
له اختياره ، وبالتالي كان عليه قبول العرض الذى طرحه
الحواريون كما هو أو رفضه ، وقد ثبت أنه رضى بالدليل الذى
حدوده واعتبره . . آية .

أنه أشرك نفسه فى الطلب ، فقال « اللهم ربنا أنزل علينا »
ولم يقل أنزل عليهم ، وأكد بذلك أنه كان مثلهم يتطلع لهذه
الآية ويعول على رؤيتها الكثير .

فهو عليه السلام بشر يتحقق له بالحواس ما لا يتحقق له
بغيرها ، ومن هذا المنطلق له أن يتمسك بقوانين عالم الشهادة ،
لكن الوسيلة التى خرج بها إلى الحياة لا تصح إلا بقوانين عالم
الغيب . فهو فى جانب منه يحق له طلب الدليل كما إبراهيم
وموسى عليهما السلام . لكنه فى جانب آخر لا يحق له ذلك .

وإذا كان رفض الفرصة التي عرضت نفسها عليه يتناسب مع معجزة ميلاده فلإن قبولها هو الذى يتلاءم مع بشرته . ولقد كشف سياق الآيات وتتابعها أن الغلبة كانت لبشريته فشارك الحواريين طلبهم ولذات الغاية التي استهدفوها وحصل بذلك على دليل حالت ظروف ميلاده دون الحصول عليه .

فطلب إنزال المائدة من جانب عيسى عليه السلام كان كطلب كل من إبراهيم وموسى عليهما السلام ، واختلاف الدليل جاء نتيجة لاختلاف طبيعة وظروف كل رسول عن الآخر ، لكن الهدف بالنسبة لهم كان واحداً ، فالسعى لالتماس دليل على وجود الغيب هو أحد الصفات المشتركة لرسول الله مهما كان بينهم من اختلاف وتباين . وقد ثبت من الدراسة التي تمت لحياة ثلاثة منهم أنهم قد استشرفوا لاختراق حجب الغيب التماساً للدليل حتى يرفع إيمانهم بوجوده إلى درجة عين اليقين ، فهم بشر يحق فيهم قوله تعالى « واللّه أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » والوحي الذى يمتازون به لا يلقي بالاً لهواجسهم وهمومهم الشخصية بدليل أن كل من التمس منهم دليلاً اتجه إلى ربه مباشرة .

فإبراهيم عليه السلام قال « رب أرنى كيف تحمى الموتى » .

وموسى عليه السلام قال « رب أرنى أنظر إليك » .

وعيسى عليه السلام شارك الحواريين طلبهم فقال « . . ربنا
أنزل علينا مائدة من السماء » .

هذه التساؤلات كانت حتمية ولازمة لرسول الله ، ولو لم تكن
كذلك لما طرحوها ، ولو لم تكن إجابتهم ضرورية وحاسمة لما
استجاب الله لهم . . فهم يتحملون عبء تبليغ الرسالة إلى
السفهاء والجهلاء والمتكبرين في الأرض ، وهم يخاطبون من إن
سألتهم . . من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، لكنهم بعد
ذلك يقولون « إذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون ، لقد وعدنا هذا
نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » ، وهى ذات
القضية التى فجرها شاعرنا المجهول عند ما قال .

أموت ثم بعث ثم نشر * حديث خرافة يا أم عمرو

فكيف يتعامل رسل الله مع مثل هذا وأمثال هؤلاء ؟ وكيف
يشيرونهم بجنة ويخوفونهم من نار وهم مثلهم لم يروا ولم
يعاينوا، والوحى الذى يوافيهم لا يفتح لهم أبواب الغيب ليطلعوا
ولا يرفع أستاره ليشاهدوا ؟

لقد التمس هذا الدليل وسعى إليه إبراهيم عليه السلام وهو أبو
الأنبياء وإمام الموحدين ، كما التمسه وسعى إليه كل من موسى
وعيسى عليهما السلام وهم من أصحاب الرسالات الكبرى ، فما
هو موقف محمد ﷺ من هذه القضية ؟

ذلك ما نستعرضه تفصيلا فيما يلى

محمد
صلى الله عليه وسلم

فى مفتتح دراستنا عن محمد خاتم المرسلين وسيد البشر
أجمعين نبدأ بتقرير أن عنوان هذا الكتاب هو « الإيمان والإسراء
والمعراج » وأن موضوعه هو : بيان الصلة والارتباط بين الإسراء
والمعراج وبين الإيمان ، لكننا حسبما بدا فيما مضى ، وإن اقتربنا
كثيراً من حقيقة « الإيمان » إلا أننا أوغلنا فى البعد عن حدث
« الإسراء والمعراج » وربما نلتزم ذات النهج فيما هو آت ، فالهدف
من هذا الكتاب ليس استعراض الحدث ذاته ودرسته بل بيان
الحكمة منه ، أو الإجابة على التساؤلات الآتية :

هل كان من المحتم فى العقيدة الإسلامية أن يتم الإسراء بمحمد
ﷺ والعروج به ؟ ولماذا ؟ أم أن هذه الرحلة كانت مجرد تزييد
إضافته لا تفيد وحذفه لا يضر ؟

وإذا كان الفكر الإسلامى القديم لم يتعرض لهذه التساؤلات ،
فإن الفكر الحديث تعرض لها ، لكنه اتجه فى شبه إجماع إلى
الربط بين الإسراء والمعراج وبين حالة الرسول النفسية بعدما فقد
زوجته السيدة خديجة وعمه أبا طالب ليرتب على ذلك أن رحلة
الإسراء والمعراج تمت لتعزية الرسول وتسليته وتثبته ، ولتعزير
هذا رأى روج كثير من الكتاب لقصة وهمية تنسب لرسول الله
ﷺ أنه أطلق على عام وفاة روجه وعمه « عام الحزن » .

ولقد تعرضنا لذلك تفصيلاً فى كتابنا « حقائق الإسراء والمعراج »

بما يغنى عن الخوض فيه هنا ، فضلاً عن أن تحرى الحكمة من الإسراء والمعراج التى استهدفناها من هذا الكتاب اقتضت التركيز على موضوع «الإيمان» الذى انتهينا فيه إلى أن رسل الله - فيما يختص بالإيمان بدنيا الغيب - لم يرضوا بالنذر اليسير المتاح لعامة البشر ، وخاض كل منهم تجربة شخصية كانت هامة وحاسمة ، خرج منها وقد اطمأن قلبه واستقر يقينه لأنه اختار الدليل وعينه .

وإذا كان محمد ﷺ هو المبلغ لأكمل وأعم الرسالات ، والحامل لأثقل وأخطر التبعات ، والمحتاج بالتالى لأعلى وأتم درجات الثقة واليقين ، فهل مر هو الآخر بهذه التجربة كغيره من الرسل ، والتمس دليلاً على وجود الغيب كما التمسوا ؟

لقد استعنا عند دراسة الأمر بالنسبة لرسل الله بما ورد عنهم فى القرآن الكريم ، وكان هدفنا هو الكشف عن ذلك الموقف الذى اعتبرناه محاولة لاختراق حجب الغيب وإلقاء الضوء عليه ، وقد استدعى ذلك التمهيد بدراسة موجزة لسيرة كل منهم على حدة ، بيد أننا لا نستطيع أن نتبع ذات الأسلوب بالنسبة لمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، فكم المعلومات والتفاصيل المتوافرة عن حياته لا يقبل الإجمال أو الإيجار ، وإذا كان بعضها قد ورد فى القرآن الكريم ، فإن أكثرها جاء فى كتب الحديث ومجلدات السيرة . ومن ثم - والتزاماً بالهدف من هذا الكتاب- فسوف

يقف تناولنا للسيرة النبوية عند تحديد ما إذا كان محمد ﷺ قد
التمس كغيره من الرسل رؤية ماله صلة بعالم الغيب ابتداء بالبعث
ومروراً بالحساب والجزاء والجنة والنار وانتهاء بذات الله عز
وجل .

وفى بيان ذلك نعلن أن كتاب الله لم يسجل موقفاً لرسول الله
ﷺ يمكن تأويله بأنه محاولة للنفاذ من بين أستار الغيب .

فلا هو طلب صراحة ومباشرة رؤية إحياء الموتى
ولا عكس لسانه ما يدور داخل نفسه فتساءل «أنى ينحى هذه
الله بعد موتها»

ولا هو طلب رؤية ربه .

ولا هو استجاب لإلحاح القرشيين بإنزال آية ، ولا دعا ربه أن
يجيبهم إلى ما طلبوه (١)

لم يسجل القرآن الكريم شيئاً من ذلك ولا قريباً منه .

لكن كتب السيرة والحديث احتوت على حديثين فى واحد
منهما إشارات عامة ، وفى الثانى.إشارات محددة ، لكن أحدهما

(١) سجل القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى { وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من
الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . - أو
تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت
من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه } سورة
الإسراء . الآيات من ٩٠ - ٩٣

صحيح والآخر متهالك وضعيف .

أما عن الحديث الصحيح فقد استعرضناه عند دراسة « قصة إبراهيم » وهو قول محمد عليه الصلاة والسلام « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيي الموتى » .

وبغض النظر عن الخلاف بين المفسرين حول ما إذا كان إبراهيم عليه السلام قد شك أم لا ، فظاهر ألفاظ الحديث تدل على أن الحيرة إن كانت قد تسلت إلى صدر إبراهيم فإن تسللها إلى صدره صلوات الله عليه يكون أقرب وأيسر ، وإن إبراهيم إن كان قد شك فإن محمداً أولى أن يشك .

لكن الحديث - كما هو واضح - مبني على تقرير حق الرسول كبشر في أن يشك ، أما ممارسة هذا الحق فلم يعلنها الحديث أو يؤكددها ، وما يعيننا هنا ليس تقرير الحق كمبدأ ، بل ممارسته فعلاً وعملاً . وفضلاً عن ذلك فقد سبق أن أوضحنا عند دراستنا التفصيلية لهذا الحديث أن ما صدر عن رسول الله لم يكن على معنى إثبات الشك في جانبه بل كان بقصد رفع الحرج عن إبراهيم بمشاركته مفهوم (الشك) المنسوب إليه في قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن . . » .

فقوله صلوات الله وسلامه عليه « نحن أحق بالشك من إبراهيم . . » لا يفيد في نصه أو مقتضاه أنه قد شك فتساءل أو انتابته الحيرة فطلب .

هذا عن الحديث الصحيح .

أما عن الحديث الآخر فقد أثبتته ابن سعد في الطبقات تحت باب «ذكر المعراج وفرض الصلوات» .

قال : أخبرنا محمد بن عمر ، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي سبرة وغيره من رجاله ، قالوا : كان رسول الله ﷺ يسأل ربه أن يريه الجنة والنار ، فلما كان ليلة السبت لسبع عشرة خلت من شهر رمضان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً ورسول الله ﷺ نائم في بيته ظهراً أتاه جبريل وميكائيل فقالا : انطلق إلى ما سألت الله . . فخرجنا به السموات سماء سماء (١)

ولو صحت هذه الرواية لكان محمد ﷺ قد سعى كغيره من الرسل إلى اختراق حجب الغيب ، لأن الهدف من رؤية الجنة والنار لم يكن السياحة أو التسلية أو مجرد تزجية الفراغ ، بل الاطلاع على دليل من عالم الغيب ، به يطمئن القلب ، وعليه يستقر اليقين ، وبذلك يستوى صلوات الله وسلامه عليه مع غيره من الرسل ، فإبراهيم عليه السلام سأل ربه ، وكذلك فعل موسى وعيسى عليهما السلام ، فإذا جاء محمد ﷺ وطلب رؤية الجنة والنار فليس هناك ما يلفت النظر أو يستدعي العجب ، بل إن هذا الطلب ليمثل واسطة العقد المفقودة ، فإبراهيم عاين

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد . جزء أول - صفحة ١٤٢

الخطوة الأولى من عالم الغيب ، وموسى عاين المشهد الأخير ،
وما هو ذا محمد يسعى لمعاينة المرحلة الوسطى .

لكن رواية ابن سعد غير صحيحة وأسانيده فيها غير موثقة ،
وإذا كان هو أول من جاء بها فقد كان كذلك آخرهم إذ أهملتها
كتب الحديث لفقدانها شروط الصحة ، كما طرحها المحدثون
والمفسرون ، ويلفت النظر أنه على كثرة ما أوردوه من روايات
عليلة ومختلفة عن الإسراء والمعراج ، فلم يعتمد على رواية ابن
سعد منهم أحد ولم يذكرها أحد فيما عدا ابن حجر الذي
انتقدها في كتابه «فتح الباري»^(١)

هذا عن شكل رواية ابن سعد ، أو ما يسميه علماء الحديث
بالسند أى حظ الرواة من العدل والتجريح والثقة والتكذيب ، أما
عن موضوعها فهو كذلك غير صحيح ، وحتى بالنسبة لغير
المتخصصين فإنه من السهل اكتشاف فساد ما جاء به ابن سعد عن
الإسراء والمعراج ، فالأحاديث الصحيحة على أن الإسراء تم ليلاً
إلى بيت المقدس ، ثم أعقبه المعراج إلى السموات العلا . أما ابن
سعد فيروى أن المعراج تم من مكة ظهراً ثم تلاه الإسراء بعد ستة
أشهر مخالفاً بذلك - كما قال ابن حجر - لما فى الروايات
الصحيحة فى الأمرين معاً .

(١) راجع رواية ابن سعد عن الإسراء والمعراج كاملة وتعليقنا عليها فى كتابنا
(حقائق الإسراء والمعراج) صفحة ٦٦ وما بعدها

نستطيع إذن أن نطرح رواية ابن سعد ثم نقرر أنه لم يرد سواء في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة موقف واحد يفيد صراحة أو ضمناً أن محمداً ﷺ قد استسلم لهواجس الشك فالتمس دليلاً على وجود الغيب ، لكن هذا الذى قررناه يحتاج إلى تدعيم ، إذ قد تكون هناك آية لم نلتفت إليها أو حديث لم نحط به ، ودون هذا التدعيم فإن حديث ابن سعد - على ضعفه الأكيد - يكتسب قوة غير حقيقية ، يصبح معها قرينة على عكس ما قررناه .

ولتأكيد ما ندعيه من ناحية ، ولتمحيص حديث ابن سعد من ناحية أخرى فإنه يلزم مراجعة واستعراض كتاب الله آية آية ، فحرص القرآن الكريم على تسجيل مثل هذه المواقف الشخصية للرسول السابقين لم ينبع من أهميتها فحسب ، بل ومن ضرورتها لكمال الرسالة ولزومها ليقين الرسول ، وعلى ذلك فلو أن محمداً ﷺ طلب رؤية الجنة والنار أو التمس دليلاً آخر لسجل القرآن الكريم ذلك كما سجله لغيره من الرسل .

وتوفيراً للجهد فى المراجعة المطلوبة ، وتحديداً لها فى نفس الوقت سوف نقصر على متابعة ما ورد فى القرآن الكريم عن الفعل «قال» وسيغنيننا هذا عن مراجعة آياته آية آية ، فالقول هو الانعكاس المادى لما فى الصدور من مشاعر وأحاسيس ، ومن خلاله يتم الإعلان عما يطوف بالعقل من تساؤلات ، وبه يجرى الكشف عن كل ما تتطلع إليه النفوس من رغبات وأمنيات .

ولقد تردد هذا الفعل بصيغه المختلفة فى القرآن الكريم أكثر من أى فعل آخر ، إذ بلغ ١٨٢٤ مرة ، والمضارع من الفعل «يقول» والماضى «قال» والأمر «قل» والفارق بينهم المبنى على قواعد اللغة معروف للجميع ، بيد أننا سنركز على فارق آخر يهمنا فيما نحن بصدده .

فصيغة فعل الأمر «قل» تعنى أننا بصدد إرادتين ، إحداهما قوية مسيطرة ، تريد أن تحدد وتوجه ، لكنها تسخر إرادة أخرى لإعلان قولها ، أو هى مطمئنة بغيرها واثقة تنبها فى إذاعة رأيها ونشر وجهة نظرها ، وفى الحالتين فإن ما يصدر عن المأمور أو المكلف - بخيره وشره - لا ينسب إليه ، بل ينتسب مباشرة إلى من أصدر الأمر أو قضى بالتكليف .

أما صيغتي الماضى «قال» والمضارع «يقول» فهما لا تعبران فحسب عن كلام قيل فى الماضى أو يقال فى الحاضر لكنهما بالإضافة إلى ذلك تفيدان أن ثمة قيمة يسيرة أو عظيمة لإرادة القائل ، فقوله صدى لخطرات فكره وخلجات نفسه ، فهو منسوب إليه ، ونطقه تعبير عن رأيه واعتقاده فهو محسوب عليه ..

وتصديقاً لما سلف ، فالقارئ لكتاب الله يستطيع أن يطالع مواقف عديدة عبر فيها الفعل «قال» والفعل «يقول» عن قدرة

التكلم أو عجزه ، ضعفه أو قوته ، فساد طويته أو نقاء سريرته ،
طغيانه وكفره أو إيمانه وتقواه ، فضلاً عن أن هذا الفعل كان سبيل
الجميع - بشراً ورسلاً - لاختراق أسوار عالم الغيب والنفاذ من
بين أستاره ، فإبراهيم عليه السلام قال :

« رب أرني كيف تحيي الموتى »

وموسى عليه السلام ، قال :

« رب أرني أنظر إليك » .

والخواريون ، قالوا :

« يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من
السماء » .

وعيسى عليه السلام ، قال :

« اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء »

والذى مر على القرية الخاوية ، قال :

« أتى يحيى هذه الله بعد موتها »

وعلى ذلك ، فلو أحطنا بأقوال محمد ﷺ فسنفق على وجه

الحق فيما إذا كان قد طلب من ربه أو التمس ، وسنعرف ماذا
طلب وماذا التمس .

فكم مرة قال ﷺ في القرآن الكريم ، وماذا قال ؟

ولنبداً بالفعل المضارع

ورد هذا الفعل في القرآن الكريم بصيغة المخاطب «تقول»
والغائب «يقول» ثمانين مرة ، ومن خلاله تم الإفصاح عن رأى
القائل وعقيدته ، مثل

«فمن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا ..» البقرة ٢٠٠

«إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ..»

طه ٤٠

« إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء

الانفال ٤٩

دينهم ..»

وقد نسب القول فى هذا الفعل لله سبحانه وتعالى وللملائكة
ورسله وعباده المؤمنين والظالمين والمنافقين ، أما بالنسبة لمحمد
عليه الصلاة والسلام فقد قال ثلاث مرات فقط نستعرضها
فيما يلى :

جاءت المرة الاولى فى قوله تعالى « إذ تقول للمؤمنين ألن
يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين» (١)

وقصة الآية كما رواها الطبري : أن كرز بن جابر المحاربى كان

(١) سورة آل عمران - آية ١٢٤

يريد أن يمد المشركين بيدٍ فشق ذلك على المسلمين . ويبدو أن وقع هذا الخبر على المسلمين كان شديداً ، فهم بعد قلة يخوضون أولى معاركهم ضد عدو يفوقهم عدداً وعدة ، وتأيداً لهم أوحى الله إلى رسوله أنه سيمدهم بجند من الملائكة ، ونقل الرسول هذه البشارة إلى المسلمين ، وسجل القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة . . » .

فقول الرسول هنا لم يكن اعتقاداً شخصياً أو هاجساً داخلياً ، بل كان وحياً بلغه عن ربه فنقله ﷺ إلى المؤمنين تثبيتاً وتطمينا .

أما المرة الثانية فقد جاءت فى قوله تعالى « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانياً اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . » (١) .

وقد نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك فى العام التاسع الهجرى عندما دعا الرسول إلى قتال الروم وتهيب بعض المسلمين ذلك واعتذروا عن المشاركة ، فعاتبهم الله ، وذكرهم برحلة الهجرة وكيف نصر رسوله عندما اقتفى المشركون أثره إلى أن وقفوا على مدخل الغار ، وامتلاً قلب أبى بكر رعباً وهو يهمس « لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لأبصرنا » ، فرد رسول الله باطمئنان

(١) سورة التوبة آية ٤٠

وثبات « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » . وسجل القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى « . . إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .

أما القول الأخير لرسول الله فقد ورد في قوله تعالى « وإذا تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه.. » (١)

وعن قصة الآية يقول القرطبي : روى عن علي بن الحسين أن النبي ﷺ كان قد أوحى الله تعالى إليه أن يبدأ يطلق زينب ، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها ، فلما تشكى زيد للنبي ﷺ خلق زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية : اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها ، وخشى رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه ، وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه الله على هذا القدر من أن خشى الناس في شيء قد أباحه الله له ، بأن قال «أمسك» مع علمه بأنه يطلق ، وأعلمه أن الله أحق بالخشية ، أي في كل حال . (٢)

(١) سورة الأحزاب - آية ٣٧

(٢) تفسير القرطبي الجزء الرابع عشر - صفحة ١٩٠ ، ١٩١

تلك هي الأقوال الثلاثة التى نسبت إلى رسول الله ﷺ ،
ويلحق بها للارتباط - ولو أنه من باب الفعل الماضى - قوله
تعالى «ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما
أحملكم عليه» (١).

وقد نزلت هذه الآية أيضا فى غزوة تبوك فى فقراء المسلمين
الذى تحمسوا لقتال الروم وعرضوا أنفسهم على رسول الله ﷺ
يلتمسون عنده وسيلة السفر ، قال ﷺ معتذراً «لا أجد ما
أحملكم عليه» .

وإذا صح أن القول الأول «الن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة
آلاف من الملائكة» كان وحياً من الله لرسوله ، فإن الأقوال
الأخرى «لا تخزن إن الله معنا» و «أمسك عليك زوجك» و «لا
أجد ما أحملكم عليه» قد تضمنت فى الظاهر رأياً ذاتياً للرسول
عبر فيه عن وجهة نظر شخصية ، بيد أن واقع الأمر ليس على
هذا النحو .

ونحن لسنا بصدد نفى أو إثبات القول فى جانب محمد عليه
الصلاة والسلام ، فقد حفلت الأحاديث الصحيحة بالكثير من
أقواله ، لكننا بصدد تحليل ما سجله القرآن من هذه الأقوال ،
لتحديد ما إذا كان ﷺ قد التمس من ربه أو طلب دليلاً على

(١) سورة التوبة - آية ٩٢

وجود الغيب ، وذلك هو هدفنا الذى نتقصاه - لكننا سنمد مجال البحث ليشتمل على بيان ما إذا كان ﷺ قد طلب أو التمس ما له علاقة بشخصه أو بلداته .

والملاحظ على حديثه ﷺ سواء لأبى بكر أو لزيد أو لفقراء المسلمين ، أنه لم يتضمن التماساً للدليل على وجود عالم الغيب ، كما لم يشتمل على طلب شخصى أو رغبة ذاتية ، فضلاً عن أنه قد ارتبط بطروف تخص الآخرين ولا تخصه صلوات الله وسلامه عليه ، وأنه لم يكن البادى بل فرضت عليه التداعيات أن يقول فقال ، فبالنسبة لأبى بكر كان على الرسول ألا يدعه نهياً للخوف فى موقف تتزلزل فيه الجبال ، وبالنسبة لزيد فقد سعى إلى الرسول طلباً للرأى والنصيحة ، وبالنسبة لفقراء المسلمين فإن ردهم عن الجهاد - الذى سعوا لينالوا شرفه - قد اقتضى ذلك الاعتذار النبوى الكريم ، فأهمية الأقوال فى هذه المواقف على وجه الخصوص هى التى بررت رفع درجة توثيقها من مرتبة الحديث النبوى إلى مرتبة النص القرآنى . وعلى أى وجه فلا هى اشتملت على طلب تقدم به الرسول إلى ربه أو التماس رفعه إليه ، ولا هى تضمنت رأياً معبراً عن الإرادة أو مفصلاً عن الذات .

هذا عن الفعل المضارع ، أما عن الماضى «قال» فسوف نستعرضه مفصلاً لكثرة ووضوح الأمثلة الخاصة به .

ونبدأ بذلك المثال من سورة القصص عن قارون وقومه في قوله تعالى :

«إن قارون كان من قوم موسى فبنى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين» (١)

قال « إنما أوتيته على علم عندي .. » (٢)

ثم إنه خرج على قومه في ريبته .

فقال «الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم» (٣)

ورد عليهم الذين أوتوا العلم .

قالوا « .. ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون» (٤)

فنحن حيال أقوال مختلفة جبر بها أصحابها عن اعتقادهم وعقيدتهم ، فالعاقلون من قوم موسى نصحوا قارون ..

(٢) سورة القصص - آية ٧٨

(٤) سورة القصص - آية ٨٠

(١) سورة القصص - آية ٧٦ ، ٧٧

(٣) سورة القصص - آية ٧٩

قالوا « لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين » وقولهم هذا صدر
عن اعتقادهم بأن كثرة النعم توجب الشكر لله لا جحد فضله ،
والإحسان إلى الناس لا البغى عليهم .

فكان رد قارون أن . .

قال « إنما أوتيته على علم عندي » وهو بما قال عبر عن نفسه
التي استغنت واستكبرت لكثرة ما جمعت وكثرت . فالقول
يعكس نظرة صاحبه ورأيه ، ويكشف عما فى صدره من زيغ
وبهتان أو إيمان وتقوى ، فالذين غرتهم الحياة الدنيا ورخرفها . .

قالوا : ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه ل ذو حظ عظيم .

أما الذين يعلمون ألما الحياة الدنيا متاع الغرور فقد . .

قالوا : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا .

مثال آخر نأتى به من كتاب الله أيضا ، فعندما أرادت ملكة
سبأ اختبار مصداقية سليمان بإرسال الهدايا إليه ، أراد هو أن
يستعرض أمامها نعم الله عليه ، وخطرت له فكرة إحضارها هي
وعرشها إلى بلاطه وبين يديه ، فأعلن عما اختمر فى نفسه .

قال « يا أيها الملأ أئكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني

مسلمين » (١)

(١) سورة النمل - آية ٢٨

واستجاب لهذا النداء عفريت من الجن قدر المهمة المطلوبة والصعوبات التي تكتنفها والوقت الذي تستغرقه . .

فقال: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك . . (١)

وهنا انبرى من عنده علم من الكتاب طوى به حواجز المكان والزمان :

قال . . أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . . (٢)

فسليمان قال وأفصح عما فى صدره ، وعفريت الجن قال ، والذي عنده علم من الكتاب قال ، وعبر قول كل منهم عن إمكانياته وقدراته .

هذه المواقف التي تكشف عن مفهوم «القول» وردت فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، ولسنا هنا بصدد حصرها ، لكننا نكتفى منها بهذا المثال الأخير ، يقول جل شأنه فى سورة المائدة :

«واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال . . لاقتلنك قال . . إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين» (٣)

فنحن أمام أخوين شقيقين . . امتلأت نفس الذى رُفِضَ قربانه شراً وغلا ، وحمل شقيقه مسئولية ما حاق به فانفجر فى صدره

(٢) سورة النمل - آية ٤٠

(١) سورة النمل - آية ٣٩

(٣) سورة المائدة - آية ٢٧ ، ٢٨

بركان من الحقد الأعمى . . قال : لأقتلك . رد الآخر بلسان يكشف عن نفس تفيض إيماناً ورحمة ، فأوضح لأخيه ما غاب عنه .

قال : إنما يتقبل الله من المتقين .

لكنه رأى الإصرار فى عينيه على تنفيذ وعيده

فقال : لئن بسطت إلى يديك لتقتلنى ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك .

فقول القاتل صدر عن نفس خضعت لسطوة البغى والأثرة والعدوان .

وقول القاتل أفصح عن قلب امتلأ بالتقوى ونفس استعذبت بإسلام الوجه لله .

ولقد ورد الفعل (قال) للمفرد المذكر فى القرآن الكريم ٥٣٢ مرة .

كما ورد الفعل (قالا) للمثنى ثلاث مرات

أما الفعل «قالت» للمفردة المؤنثة أو للجمع فقد ورد ٤٣ مرة .
والفعل «قالتا» ورد مرة واحدة .

والفعل «قالوا» ورد ٣٣٢ مرة .

وبالنسبة للفعل «قال» الذى ورد ٥٣٢ مرة فقد نسب القول كثيراً لله عز وجل ، من مثل قوله تعالى :

«وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة...»

البقرة ٣٠

«إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلی...»

آل عمران ٥٥

«قال لن ترانی ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف

الأعراف ١٤٣

ترانی...»

«وقال الله لا تتخذوا إلهین اثنين...» النحل ٥١

كذلك نسب الفعل «قال» لانبیاء الله ورسله ، كقوله تعالى :

على لسان إبراهيم علیه السلام

«قال إبراهيم فإن الله یأتی بالشمس من المشرق فأت بها من

البقرة ٢٥٨

المغرب...»

«وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة...»

الأنعام ٧٤

«وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننی براء مما تعبدون»

الزخرف ٢٦

وعلى لسان موسى علیه السلام

«فلما أفاق قال سبحانك تبت إلیك وأنا أول المؤمنين»

الأعراف ١٤٣

« وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم... »
يونس ٨٨

« قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون »
القصص ٣٣

وعلى لسان عيسى عليه السلام
« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله... »
آل عمران ٥٢

« قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق »
المائدة ١١٦
وعلى لسان يوسف عليه السلام .

« وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك... »
يوسف ٤٢

« قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم »
يوسف ٥٥

وعلى لسان يعقوب عليه السلام
« قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا... »
يوسف ٥

« قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقاً من الله .. »

يوسف ٦٦

وعلى لسان نوح عليه السلام

« قال لأعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .. »

هود ٤٣

« ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي .. »

هود ٤٥

وعلى لسان هود عليه السلام

« وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله

هود ٥٠

غيره إن أنتم إلا مفترون »

« قال إني أشهد الله وأشهدوا آتي برىء مما تشركون »

هود ٥٤

وعلى لسان صالح عليه السلام

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من

إله غيره هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها .. »

هود ٦١

« قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتني منه

هود ٦٣

رحمة .. »

وعلى لسان لوط عليه السلام

« قال يا قوم هؤلاء بناتى من أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون
فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد » هود ٧٨

« قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد »
وعلى لسان شعيب عليه السلام هود ٨٠

« قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا
المكيال والميزان . . » هود ٨٤

« قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وورقنى منه ورقاً
حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا
الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله . . » هود ٨٨
وعلى لسان زكريا عليه السلام

« قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء »
آل عمران ٣٨
« قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامراتى »
عاقرة . . آل عمران ٤٠
وعلى لسان داود عليه السلام

« قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . . » ص ٢٤

وعلى لسان سليمان عليه السلام

« فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائين . لأعذبه
عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان ميين »

النمل ٢٠ ، ٢١

« قال رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغي لأحد من
بعدى .. » ص ٣٥

وعلى لسان إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام

« قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من
الصابرين » الصافات ١٠٢

وعلى لسان هارون عليه السلام

« قال ينؤم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى .. » طه ٩٤

وعلى لسان لقمان عليه السلام

« وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن
الشرك لظلم عظيم » لقمان ١٣

وعلى لسان أحد أنبياء بنى إسرائيل لم يعرفه القرآن

« وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا .. »
البقرة ٢٤٧

وأما بالنسبة لايوب عليه السلام فقد رفع قوله إلى درجة
الاستغاثة والاستضرخ

« وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين »

الأنبياء ٨٣

ونفس الشيء بالنسبة ليونس عليه السلام :

« فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من

الظالمين »

الأنبياء ٨٧

كذلك فقد نسب القول للخضر عليه السلام

« قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه

الكهف ٧٠

ذكرا »

وفضلاً عما سلف فقد ورد القول كثيراً على لسان البشر على

اختلاف طوائفهم ومشاربهم ومن ذلك :

المؤمنون :

« قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة

البقرة ٢٤٩

كثيرة بإذن الله .. »

« وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم .. »

الشورى ٤٥

الكافرون :

« وقال الذين كفروا لرسلمهم لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن
فى ملتنا .. » إبراهيم ١٣

« وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه .. »
فصلت ٢٦

الظالمون :

« وقال الظالمون إن تبعون إلا رجلاً مسحوراً » الفرقان ٨

المتكبرون :

« قال الذين استكبروا إنا بالذى آمتم به كافرون »
الأعراف ٧٦

المشركون :

« وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من
شئ .. » النحل ٣٥
والذين لا يرجون لقاء الله :

« قال الذين لا يرجون لقاءنا انت بقران غير هذا أو بدله .. »
يونس ١٥
والذين لا يعلمون :

« وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية .. »
البقرة ١١٨

كذلك نسب القول لفرعون

« قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من
تحتى .. » الزخرف ٥١

كما ورد القول منسوباً لإبليس

« قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » ص ٧٦
وللشيطان :

« وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق
ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن
دعوتكم فاستجبتم لى .. » إبراهيم ٢٢
ولخزنة النار :

« وقال لهم خزننها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات
ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا .. » الزمر ٧١
وجاء مضافاً لمن فى النار :

« وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً
من العذاب » غافر ٤٩

وهذا كله عن الفعل «قال» أما عن المثنى «قالا» فقد ورد فى
القرآن الكريم ثلاث مرات ، مرة منسوباً إلى موسى وهارون ،

وأخرى إلى داود وسليمان ، أما الثالثة فهي لأدم وحواء وذلك في قوله تعالى :

« قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين »
الأعراف ٢٣

وأما عن المفرد المؤنث «قالت» فقد ورد في القرآن الكريم ٤٣ مرة ، منها ما جاء على أصل الفعل ، مثل :

« إذ قالت امرأة عمران رب إنى نلت لك ما فى بطنى محرراً. »
آل عمران ٣٥

« قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر .. »
آل عمران ٤٧

« قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه. »
يوسف ٥١

ومنها ما جاء لينسب القول إلى طوائف وجماعات ، مثل

« وقالت النصارى ليست اليهود على شىء. » البقرة ١١٣

« وقالت اليهود يد الله مغلولة. » المائدة ٦٤

أما الفعل «قالتا» للمثنى المؤنث فقد ورد مرة واحدة منسوباً لامرأتى مدين اللتين سقى موسى إبلهما ، وذلك فى قوله تعالى :

« قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير »

القصص ٢٣

أما الفعل «قالوا» للجمع فقد ورد ٣٣٢ مرة

منسوبا للملائكة مثل

« قالوا ألجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . . »

البقرة ٣٠

« قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا . . » البقرة ٣٢

وللمؤمنين ، مثل :

« قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصبرنا على القوم

الكافرين » البقرة ٢٥٠

وللجن ، مثل :

« فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجياً . يهدي إلى الرشد فأما به . . »

الجن ١ ، ٢

وللكافرين

« وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين »

الأنعام ٢٩

ولاهل الجنة

« وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من
الجنة حيث نشاء . . » الزمر ٧٤

ولاهل النار

« وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا »
الأحزاب ٦٧

وهكذا . . فالفعل «قال» بصيغه المختلفة تكرر فى القرآن
الكريم ٩١٢ مرة منسوبا إلى : الله عز وجل ، وإلى رسله
الكرام ، وإلى عباده الصالحين والمؤمنين والمتقين ، وإلى الكافرين
والظالمين والفساسقين ، وإلى الشيطان وإبليس ، وإلى الجن
والعفاريت ، وإلى رجال ونسوة معروفين ومجهولين ، وإلى
الطير .

فقد نسب القول إلى هدهد سليمان

« فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين »
النمل ٢٢
وإلى الحشرات :

« قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم
سليمان وجنوده . . » النمل ١٨

وعن طريق هذا الفعل أفصح الجميع عن مشاعرهم

وانفعالاتهم ، أمانيتهم ومعتقداتهم ، سخطهم أو رضاهم ،
إيمانهم أو كفرهم ، فالقول كان وسيلة التعبير عن الذات
والإرادة ، عن الفكرة والرؤية بغض النظر عن سمو الفكرة أو
انحطاطها ، صواب الرؤية أو خطئها .

وفى القرآن الكريم ورد الفعل «قال» منسوباً

لموسى عليه السلام ٧١ مرة
ولإبراهيم عليه السلام ٣٧ مرة
ولنوح عليه السلام ١٩ مرة
وليوسف عليه السلام ١٨ مرة
وللوط عليه السلام ١٣ مرة
وليعقوب عليه السلام ١٢ مرة
ولشعيب عليه السلام ٩ مرات
ولسليمان عليه السلام ٩ مرات
ولعيسى عليه السلام ٨ مرات
ولهود عليه السلام ٧ مرات
ولصالح عليه السلام ٦ مرات

كذلك فقد نسب القول فى القرآن الكريم للذين كفروا والذين
ظلموا والذين استكبروا ٦٢ مرة ، أما الذين آمنوا والذين أوتوا
العلم فقد قالوا ٣٣ مرة ، وأما الشيطان وإبليس فقد نسب لهم
القول ١٤ مرة .

وإذا كان القرآن الكريم هو الكتاب الذى أنزل على محمد ﷺ، أفلا يدعوننا ذلك إلى التساؤل عن نصيبه من الفعل «قال» وكم مرة «قال» وعبر بقوله عن إرادته وأفصح عن مشاعره وكشف عن وجهة نظره كغيره من الرسل حتى نعرف ما إذا كان ﷺ قد طلب من ربه أو الشمس ، وماذا طلب وماذا التمس .

إن المراجعة الدقيقة لكتاب الله تثبت أن الفعل الإرادى «قال» لم يرد منسوباً لمحمد عليه الصلاة والسلام سوى ثلاث مرات من بين ٥٣٢ مرة ورد بها فى صيغة المفرد المذكر و٩١٢ مرة ورد بها فى كافة صيغ الماضى .

ولنر متى وكيف قال ﷺ وماذا قال :

القول الأول : فى مفتتح سورة الأنبياء نقرأ قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

« اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفنتون السحر وأنتم تبصرون »

ثم .. «قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم»

وفى قراءة نافع للآية الأخيرة يرد الفعل «قال» على الأمر «قل»
ربى يعلم القول»

والمعنى من تفسير القرطبي : أى لا يخفى عليه شىء مما يقال
فى السماء والأرض ، وفى مصاحف أهل الكوفة «قال ربي» أى
قال محمد ربي يعلم القول ، أى هو عالم بما تناجيتهم به . وقيل
إن القراءة الأولى «قل ربي» أولى ، لأنهم أسروا هذا القول فأظهر
الله عز وجل عليه نبيه ﷺ ، وأمره أن يقول لهم هذا ، قال
النحاس : والقراءتان صحيحتان ، وهما بمنزلة الآيتين ، وفيهما
من الفائدة أن النبي ﷺ أمر وأنه قال كما أمر (١)

فما قاله ﷺ كان أمراً من الله ، إما مباشرة بالفعل «قل» أو
أطلعه الله على أمر القوم وأوحى إليه أن يقول فقال .

القول الثانى : وقد ورد أيضاً فى سورة الأنبياء ، إذ تجرى
الآيات الأخيرة منها على النحو التالى :

«قل إنما يوحى إلىّ إنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون .
فإن تولوا فقل أذنتكم على سواء وإن أدرك أقرب أم بعيد ما
توعدون . إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون . وإن
أدرك لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين»

ثم يعقب ذلك

(١) تفسير القرطبي . الجزء الحادى عشر - صفحة ٢٧٠

«قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون»
وهنا أيضا فإن قراءة نافع للآية الأخيرة يأتى فيها الفعل «قال»
على صيغة الأمر «قل رب احكم بالحق»

لكن الواضح أن الوضع فى هذه الحالة يختلف عنه فى الحالة
السابقة ، فللرسول هنا دور إيجابى ، فهو يدعو إلى عبادة الله
الواحد القهار وإسلام الوجه له ، لكن هذا العرض من جانبه يقابل
بالرفض من جانب المرسل إليهم .

فماذا يفعل صلوات الله عليه مع هؤلاء المعرضين ؟ وماذا يقول
لهم ؟

الثابت من الآيات أن هناك إصراراً واضحاً على إبعاد الرسول
صلوات الله وسلامه عليه عن الصراع المحتدم ، وأن عليه أن يبلغ
الأمر الصادر له من الله ويلتزم به «فإن تولوا فقل . . أذنتكم على
سواء» والمعنى كما ورد فى تفسير الطبرى :

«أعلمهم أنك وهم على علم من أن بعضكم لبعض حرب لا
صلح بينكم ولا سلم» .

ثم تضى التعليمات صريحة ومحددة «وقل لهؤلاء المشركين ما
أدرى متى الوقت الذى يحل بكم عقاب الله الذى وعدكم فينتقم
به منكم ، أقرب نزوله بكم أم بعيد» .

وقل لهم : إن الله يعلم الجهر الذى يجهرون به من القول
ويعلم ما تخفونه . . فإن آخر عنكم عقابه على ما تخفون من
الشرك به أو تجهرون به فما أدرى ما السبب الذى من أجله يؤخر
ذلك عنكم ، لعل تأخير ذلك عنكم مع وعده إياكم لفتنة يريد بها
بكم ، ولتتمتعوا بحياتكم إلى أجل قد جعله لكم تبلغونه ، ثم
ينزل بكم حينئذ نقمته (١)

بعد هذا العرض للدعوة والرفض لها ، والشد والجذب والوعد
والوعيد الذى تحقق كله من خلال فعل الأمر «قل» تتاح الفرصة
فى نهاية الأمر لمحمد عليه الصلاة والسلام أن «يقول» وتعطى له
الكلمة وهو صاحب الدعوة المرفوضة فإذا به - وهو طرف فى
الخصومة - يأتى أن يكون حكماً فيها ، فلا هو قضى على
المعاندین بالكفر . ولا أقام عليهم الحجة ، ولا وجه لهم اتهاماً ،
بل رفع أمرهم إلى الله يقضى فيهم بما يشاء قال : رب احكم
بالحق .

ولعله من المناسب أن نستعرض هنا موقف نوح من القضية
ذاتها وفى بيانها يقول عز وجل :

« إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم
عذاب اليم . قال يا قوم إني لكم نذير مبين » (٢)

(١) شرح هذه الآيات من تفسير الطبرى . الجزء السابع عشر - صفحة ١٠٧

(٢) سورة نوح - الآيات ١ - ٢

لكنهم أعرضوا ، فرفع نوح الأمر إلى ربه . . « قال رب انى دعوت قومي ليلاً ونهاراً . فلم يزدتهم دعائى إلا فراراً »^(١)

فلما تمادوا فى غيهم لم يرجع إلى ربه ، بل نصّب نفسه حكماً فقال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » ثم عزز حكمه بالأسباب فأضاف « إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »^(٢)

فنوح لم يكتف بالحكم على معاصريه بالكفر ، بل بسط حكمه على ذريتهم وقضى عليهم بالفناء ، أما محمد عليه الصلاة والسلام فقد فوض أمر خصومه إلى الله ، فالكلمة الأخيرة عنهم لن تكون له ، والقول الفصل فيهم لن يصدر عنه .

القول الثالث : وقد ورد فى قوله تعالى :

« وإذ أسر النبى إلى بعض أرواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنباءك هذا قال . . نبأنى العليم الخبير »^(٣) .

وتتلخص القصة التى تشير إليها الآية فى أن الرسول كان قد استودع إحدى زوجاته سراً أوصاها بكتمانه ، لكنها نقلت الحديث إلى زوجة ثانية وعرفه الله بما حدث ، وإذ عاتبها رسول الله

(٢) سورة نوح - الآيات ٢٦ - ٢٧

(١) سورة نوح - الآيات ٥ - ٦

(٣) سورة التحريم - آية ٢

ظنت أو خشيت أن تكون الزوجة الثانية هى التى فضحت أمرها
فسألته عمن بلغه خبر نقضها للعهد .

قالت من أنباك هذا ؟

قال نبأنى العليم الخبير . وعندما يسأل المرء عن مصدر علمه
فيقول : أخبرنى زيد أو عمرو أو قرأته فى كتاب ، فهو فى
الحقيقة لم يقل ما يعبر به عن ذاته أو يفصح عن إرادته .
ذلك هو كل ما ورد فى القرآن الكريم من أقوال منسوبة لمحمد
عليه الصلاة والسلام .

فى المرة الأولى أعلن بديهية إيمانية «ربى يعلم القول فى السماء
والأرض» .

وفى الثانية فوض أمر المخالفين له إلى الله «رب احكم
بالحق» .

وفى الثالثة أبان عن مصدر علمه «نبأنى العليم الخبير» .

وعلى ذلك فإن القرآن الكريم لم يشتمل فى حقيقة الأمر على
«قول» واحد لرسول الله ﷺ مما يمكن اعتباره إفصاح عن الذات
أو تعبير عن الإرادة فضلاً عن أن يكون التماساً لآية أو طلباً
لدليل . هذا فى الوقت الذى قال فيه رسل الله جميعاً وأفصحوا
وطلبوا والتمسوا ، وقال غيرهم قولاً كثيراً وقولاً خطيراً ، وعلى
سبيل المثال فقد بلغ نصيب فرعون من الفعل الإرادى «قال» ٢٦

مرة ، ملاًها كفرأ واستعلاء وظلماً حتى اشتط فقال : أنا ريكم الأعلى .

ولا يجوز تبرير هذا الموقف بأنه المطابق لمقتضى الحال على زعم أنه فيما يختص بقصص السابقين التى جاءت فى القرآن الكريم فقد كان من المحتم استعمال الفعل الماضى «قال» أما بالنسبة للأحداث التى عاصرها محمد ﷺ ونزل القرآن الكريم بيانها فقد تعذر استعمال صيغة الفعل الماضى ، وبالتالي لم يسجل القرآن الكريم قولاً حقيقياً واحداً لرسول الله ﷺ ، فما سلف ليس صحيحاً من وجهين :

الاول : إن ندرة الأقوال المنسوبة له ﷺ على صيغة الماضى «قال» لا تقابلها زيادة فى تلك المنسوبة له على صيغة المضارع «يقول»

الثانى : إن القرآن الكريم كلام الله ، وهو حسب الرأى الراجح أزلّى وغير مخلوق ، ولا مجال للربط بين أزمان الأفعال فيه وتاريخ الحدث الذى نزلت بتسجيله الآية .

فالتعبير بالفعل الماضى «قال» ورد كثيراً عن مواقف ومشاهد يوم القيامة التى لم تتحقق بعد ، من ذلك

«قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً» طه ١٢٥

«وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم ..» الزمر ٧١

«وقال الذين فى النار لحزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً
من العذاب» غافر ٤٩

كما أن الفعل الماضى «قال» قد نسب لرسول الله ﷺ أربع
مرات ، والمضارع «يقول» نسب ثلاث مرات ، لكنه لم ينطق
فى أى منها بما يعبر عن وجهة نظره أو يفصح عن دخيلة نفسه ،
أو يكشف عن حاجة شخصية أو رغبة ذاتية .

ويزداد الأمر تأكيداً عندما نتبين أن رسول الله ﷺ قد مر
بمواقف عديدة كان من الطبيعى أن يتكلم فيها ويقول ، لكن
التحليل الدقيق للآيات أثبت أن عزل مشاعره وإبعاد رد فعله
البشرى كان معنياً ومقصوداً .

ونحن نطالع قوله تعالى :

«وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو
تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً .
أو تسقط السماء كما رعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة
قبلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن
لرقيق حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه» .

تلك هى مطالب القرشيين أو شروطهم للإيمان ، وللرسول أن
يختار أياً منها ، فإن تحقق على يديه آمنوا به . ولو تخيلنا رسولا
آخر غير محمد عليه الصلاة والسلام لكان قد حدد الرد من خلال

تقديره الشخصى للموقف ، فإن رأى أن الأمر يستدعى تلبية طلبهم لقال : اللهم ربنا فجر لنا من الأرض ينبوعا .

وإن رأى أنهم اشتطوا فى طلبهم لقال : اتقوا الله

وإن رأى أن تحقيق ما طلبوه ليس بيده لقال على لسانه : هل كنت إلا بشراً رسولاً

لكن الأمر بالنسبة لمحمد ﷺ ليس على هذا النحو ، فخطبة القرآن الكريم فى هذا الموقف وأمثاله هى : تحديد تصرفات هذا الرسول الخاتم ورسم ردود أفعاله حتى لا تكون انعكاساً لمشاعره الذاتية ، أى حتى لا يكون لرحمته أو سخطه ، لرضاه أو غضبه ، لحبه أو كرهه دخل فى تحديد رد فعله قولاً كان أم عملاً مصداقاً لقوله تعالى «وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى» (١)

لذلك فالرد على عرض القرشيين يكون بالتوجيه الإلهى ، بفعل الأمر :

قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً .

وفى القرآن الكريم عديد من المواقف التى تؤيد هذا النظر .

فهناك تسجيل لموقف إبراهيم عليه السلام عندما جادله قومه ، وذلك فى قوله تعالى :

(١) سورة النجم - آية ٣ ، ٤

«وحاجه قومه قال ألمجاهوني في الله وقد هذان ولا أخاف ما
تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا
تذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم
بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن
كنتم تعلمون» (١)

هكذا تدخلت إرادة إبراهيم وقدراته الشخصية في إعداد
وضياعه رده المفصل .

أما بالنسبة لمحمد ﷺ في الموقف نفسه فالتوجيه الإلهي يفرض
عليه الرد .

«فإن حاجوك . . فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن . . .»
آل عمران ٢٠
كذلك فعندما تملك اليأس نوحاً من هداية قومه فإنه
قال . . « رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا
خساراً .

أما محمد ﷺ ففي الظروف ذاتها يصدر له التوجيه :
« فإن عصوك فقل . . إني بريء مما تعملون »

الشعراء ٢١٦

(١) سورة الأنعام - الآية ٨٠ ، ٨١

وأثر الجانب الشخصى أو الإرادى للرسول على تصرفاتهم له فى القرآن الكريم شواهد عديدة . فنوح عليه السلام عندما كذبه قومه وقالوا :

«مجنون وادجر» فإنه دعا ربه «أنى مغلوب فانتصر» (١)

كذلك فعندما سخروا منه وهو يصنع الفلك فإنه قال « إن تسخروا منا فلما نسخر منكم كما تسخرون » (٢)

وموسى عليه السلام لما جمع له فرعون السحرة ، فإنه قال لهم « ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » (٣)

وهود عليه السلام لما سخر قومه من دعوته وطالبوه بإنزال ما يعدهم به من العذاب فإنه قال « قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب اتجادلوننى فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » (٤)

هذه التصرفات ذات الطابع الشخصى ، والمتأثرة بالقطع بمشاعر كل رسول وانفعالاته لم تتحقق بالنسبة لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ففى كافة المواقف ينزل الوحي بفعل الأمر «قل» محدداً الرد والتصرف ، من ذلك :

(٢) سورة هود - آية ٣٨
(٤) سورة الأعراف - الآية ٧١

(١) سورة القمر - آية ٩ - ١٠
(٣) سورة طه - الآية ٦١

«وكذب به قومك وهو الحق قل .. لست عليكم بوكيل» الأنعام ٦٦

«فإن كذبوك فقل .. ربيكم ذو رحمة واسعة ..» الأنعام ١٤٧

«فإن رجعتك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل .. لن

تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا ..» التوبة ٨٣

«يعتدلون إليكم إذا رجعتم إليهم قل .. لا تعتدلوا لن نؤمن

لكم ..» التوبة ٩٤

«فإن تولوا فقل .. حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت ..»

التوبة ١٢٩

«فإن عصوك فقل .. إني بريء مما تعملون ..» الشعراء ٢١٦

هذا التوجيه الإلهي لمحمد ﷺ لا يقتصر على مواقف بعينها ،

بل هو جزء من خطة عامة ، فقد شاء رب العزة الذى اصطفى

محمداً ورباه واختصه بأعظم وأكمل الرسالات أن يجعل شخصية

رسوله قرآنية وقوله ربانيا .

والقرآن الكريم يكمل بعضه بعضاً ويفسر بعضه بعضاً ، وإذا

كنا قد رأينا أن محمداً ﷺ لم يكن له نصيب فى الفعل الإرادى

«قال ويقول» فلنر كم كان نصيبه ونصيب غيره من فعل الأمر

«قل» .

والأصل أن أوامر الله ونواهيه يتم توجيهها مباشرة منه عز

وجل ، فهو وحده الخالق والكل له عبيد ، فإذا فوض عبداً من عباده فى تبليغ كلمته وحدد له فى كل موقف ما يقول وما يفعل فذلك فضل ما بعده فضل وتكريم ما فوقه تكريم ، إذ يصبح المكلف هنا نائباً عن ربه ، مفصحاً عن إرادته أو مشمول برعايته وعنايته ، وبهذا المعنى فقد صدر الأمر الإلهى من فوق سبع سماوات مفتتحاً بقوله تعالى «قل» ٣٣٢ مرة ، منها :

واحدة لنوح عليه السلام فى قوله تعالى :

«أم يقولون افتراء قل إن افتريته فعلى إجرامى . .» هود ٣٥

وواحدة لموسى عليه السلام فى قوله تعالى :

«اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى»

النازعات ١٧ ، ١٨

ثم ثلاث مرات صدر فيها الأمر الإلهى «قل» من منطلق التنويه والاهتمام موجهاً الخطاب مباشرة من العلى العظيم لبنى البشر جميعاً بمنهاج معاملة الوالدين وذلك تمشياً مع خطة الإسلام فى إكramهما والإحسان إليهما والعناية بأمرهما ، وبصياغة يشعر القارئ ، أو المستمع لها أنه المقصود بها دون غيره ، وذلك قوله تعالى :

«وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما

وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل
رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ^(١) »

ثم « وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل
لهم قولا ميسورا » ^(٢)

أما باقى المرات وعددها ٣٢٧ فقد كان التكريم والتفويض
والعناية والتوجيه من نصيب محمد عليه الصلاة والسلام .

فى الصغير من الأمور والكبير ، الهين والخطير ، الخاص
والعام يصدر التفويض الإلهى إلى محمد عليه الصلاة والسلام
بالفعل « قل » .

ونحن نقرأ الآيات :

« يسألونك عن الأهلة قل .. هى مواقيت للناس والحج .. »

البقرة ١٨٩

« قل .. يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن

تبغونها عوجا .. » آل عمران ٩٩

« قل .. إن الأمر كله لله .. » آل عمران ١٥٤

« وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل .. كل من عند

الله .. » النساء ٧٨

(٢) سورة الإسراء - آية ٢٨

(١) سورة الإسراء - آية ٢٣ ، ٢٤

« قل .. إني أمرت أن أكون أول من أسلم.. » الأنعام ١٤

« وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل .. سلام عليكم.. »

الأنعام ٥٤

« قل .. إن الله لا يأمر بالفحشاء.. » الأعراف ٢٨

« قل .. أمر ربي بالقسط.. » الأعراف ٢٩

« قل .. يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا.. »

الأعراف ١٥٨

« يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الأسرى .. إن يعلم الله

فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم.. » الأنفال ٧٠

« قل .. لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. » التوبة ٥١

« قل .. ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى.. » يونس ١٥

« قل للمؤمنين .. يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم.. »

النور ٣٠

« قل .. أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم

القيامة.. » القصص ٧١

« قل .. لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل.. »

الأحزاب ١٦

« قل .. إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.. » سبأ ٣٦

« قال من يحيى العظام وهى رميم . قل .. يحييها الذى

أنشأها أول مرة.. » يس ٧٨ ، ٧٩

« قل للمخلفين من الأعراب .. استدعون إلى قوم أولى بأس

يد... » الفتح ١٦

قالت الأعراب آمنا قل .. لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا.. »

الحجرات ١٤

« يمنون عليك أن أسلموا قل .. لا تمنوا على إسلامكم.. »

الحجرات ١٧

« قل .. ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة.. » الجمعة ١١

« قل .. إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً » الجن ٢١

« قل .. يا أيها الكافرون .لا أعبد ما تعبدون » الكافرون ٢، ١

« قل .. أعوذ برب الفلق » الفلق ١

« قل .. هو الله أحد » الإخلاص ١

وحتى في حياة الرسول الخاصة ، داخل بيته وبين أزواجه

يصدر له التوجيه الإلهي :

« قل لأزواجك .. إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين

أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً » الأحزاب ٢٨

« قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين .. يدنين عليهن من

جلايبهن.. » الأحزاب ٥٩

فحرماته صلوات الله وسلامه عليه في القرآن الكريم من القول

المعبر عن الإرادة والذي بدأ - للوهلة الأولى - مثيراً للدهشة كان

منتظراً ومتوقفاً ، فهو ﷺ محل عناية ربه ورعايته ، قريب إلى

درجة لا يملك معها أن يقول فيترجم عن مشاعره ، أو ينطق
فيفصح عن ذاته ، فهو فى مقام لا وجود فيه لغير الله ولا تعامل
إلا من خلال «قل» التى تعنى التفويض وتقصد الإنابة والتكريم
والتي ترددت فى القرآن الكريم ٣٣٢ مرة بلغ نصيب محمد ﷺ
منها ٣٢٧ مرة .

إن خطة القرآن الكريم فى إصدار التوجيه إلى محمد ﷺ
بالأمر الإلهى «قل» واضحة ومقصودة ، هدفها أن يكون الرسول
قرآنياً فى قوله وفعله ، قرآنياً فى نطقه وصمته ، قرآنياً فى
علاقاته مع الآخرين وفى ردود أفعاله تجاههم ، وذلك كله
مصادقاً لقوله تعالى «قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله
رب العالمين» وهى آية يصف فيها الرسول نفسه ، وبالتالي كان من
المتوقع أن ترد على لسانه فيقول «إن صلاتى ونسكى ومحياى
ومماتى لله رب العالمين» لكن حتى فى مجال الإفصاح عن الذات
يصدر له التوجيه بـ «قل» إن صلاتى ونسكى .

هذه الخطة الفذة فى نسبة الفعل «قال» والفعل «قل» للنبي
الأمى لا يعقل أن تكون وليدة تدبير ذكى من محمد ﷺ ، ولا
يتصور أن تكون مصادفة غير مقصودة ، وإن الإصرار على هذه
الخطة ليؤكد أن محمداً بن عبد الله ليس فحسب رسولاً كغيره من
الرسل ، بل هو متحدث باسم ربه ، ناطق بكلمته ، ولعل هذا

المبدأ قد أشير إليه أكثر من مرة ، أشير إليه ضمناً في أول آيات الوحي «اقرأ باسم ربك» فقد أعقب ذلك نزول «قل» ٣٢٧ مرة ينطق بعدها محمد فيشرع ويبين ، ويحل ويحرم ، ويطلق ويقيّد ، يفعل ذلك في إطار التفويض الإلهي «اقرأ باسم ربك» حتى إن وحدانية الله عندما تبلورت في أدق وأصفى صورها قد أعلنت إلى البشر على لسان محمد من خلال «قل هو الله أحد» .

كما أشير إلى ذات المبدأ صراحة في حديث رسول الله «أدبني ربي فأحسن تأديبي» ، وكذلك في قول السيدة عائشة عنه صلوات الله وسلامه عليه «كان خلقه القرآن» فما نطق به كان وحيّاً من خلال «قل» وما فعله كان امتثالاً لأمر ربه ، وفي الحالتين لم يكن لمشاعره أو انفعالاته دخل فيما صدر عنه .

ولا يعنى ما سلف أنه ﷺ كان مسلوب الإرادة أو أن مشاعره وانفعالاته كانت معطلة ، فالبشرية لا يمكن أن تفرض عليه اسماً ووصفاً ثم تعطل واقعاً وفعلاً ، ومع صراع الحياة وصخبها المتلاطم حوله فإنه ﷺ يفعل ويتأثر ، فيغضب ويرضى ، ويقبل ويرفض ، ويحب ويكره ، ويستقل بتقييم مقدمات الأمور وتقدير نتائجها ، فإن طابق ذلك كله وحيّاً صريحاً من الله ، أو إلهاماً ألقاه الله في قلبه فعندئذ يكشف صلوات الله عليه عن أفكاره ومشاعره ، ويكون ما يصدر عنه من قول أو فعل أو تقرير سنة يلتزم المسلمون بها ، أما ما انفرد به صلوات الله وسلامه عليه من

دون الخلق جميعاً بشراً ورسلاً وملائكة^(١) فهو أن مشاعره الخاصة وتفاعلاته الداخلية إن لم تؤيد بوحى صريح أو إلهام ضمنى فإنها تبقى ، أو يجب أن تبقى عديمة الأثر على تصرفاته الخارجية ، بل إنها يجب ألا تتعدى حدود فؤاده إلا أن ينزل بالإعلان عنها وحى كريم ، فإن لم ينزل فلإن محمداً لا يفصح ولا يكشف لأنه لا يقول كغيره من الرسل ولا نصيب له فى «قال» كنصيبهم .

ولتأكيد ما سلف نستعرض مرة أخرى بعض ما سجله القرآن الكريم لرسول الله ، يقول جل شأنه :

«ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب»
هود ٧٧

«وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين»
الأنبياء ٨٣

«وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه. .»

الأنبياء ٨٧

(١) فيما يختص بانفعالات الرسل ومشاعرهم فقد سبق أن أشرنا إلى العديد منها ، أما عن مشاعر الملائكة فقد وردت فى قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) سورة البقرة - آية ٣٠

جاءت رسل الله من الملائكة إلى لوط فى هيئة البشر ، فلما رأى حسنهم وجمالهم توقع افتتاح قوم بهم فغشيه الهم والضيق وأعلن عن توجهه فقال «هذا يوم عصيب» .

أما أيوب فقد ابتلاه الله فى نفسه وأهله ، فلما طالت محنته رفع صوته بالشكوى فقال «رب إنى مسنى الضر» .

وأما يونس فقد غضب من قومه لكفرهم وعنادهم ، وتملكه اليأس من هدايتهم فرحل عنهم وتخلّى عن إبلاغهم رسالة ربه .

فرسل الله كانوا يفعلون بما يحيط بهم من أحداث خارجية وبما يستشعرونه من أحاسيس داخلية وينعكس ذلك على تصرفاتهم فى أقوال كان من الأوفق كتمانها وأفعال كان من الأحوط اجتنابها .

ولقد مر محمد ﷺ بمثل ما مر به غيره من الأنبياء ، فقد جرح وأصيب فى جسده ، وابتلى فى ولده وأهله ، وضائق عليه الأرض وأحاط به الأعداء واجتمع عليه السفهاء ، وكان لكل ذلك وقعه عليه لكن أثره كان محصوراً فى الإطار الداخلى للنبي الذى كان له أن يفعل ويتألم كغيره من الرسل ، لكن ليس له مثلهم أن يشكو أو يتبرم لأن كلام محمد الرسول يتحدد فى إطار « قل » الإلهية .

وتطبيقاً لذلك نطالع فى القرآن الكريم المواقف الآتية :

الموقف الأول : كان ﷺ شديد الألم لكفر قومه ، يملكه الأسف لإعراضهم عما جاءهم به من الحق ، والضيق لاستمساكهم بما هم عليه من باطل ، والحزن لما ينتظرهم من خسران الدنيا والآخرة ، يجتمع عليه ذلك كله حتى ليكاد اهتمامه بأمهم أن يهلكه ، وحتى ليوشك حرصه عليهم أن يقضى عليه ، ورغم ذلك فما ينطق به محمد الرسول لا يفصح عن مشاعر محمد الإنسان لأن الأول يعلم أنه «وما على الرسول إلا البلاغ المبين»^(١) كما أنه يلتزم بالتوجيه الإلهي «فلما تولوا فلما عليك البلاغ المبين»^(٢) واحتراقه الداخلي من أجل هداية قومه لو بدا في انفعال ملموس لتعارض مع النص الواضح «ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء»^(٣)

وإذا كان تفويض محمد في إعلان الإرادة الإلهية قد استلزم كتمانته لإرادته البشرية ، فقد تولى ربه تسجيل مشاعره العظيمة وتقدير رأفته النبيلة بقومه ، عندما كشف عن ذلك كله في قوله تعالى :

«فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا»^(٤)

كذلك فعندما ثقل عليه أذى قومه وساء افتراؤهم عليه

(٢) سورة النحل - آية ٨٢

(٤) سورة الكهف - آية ٦

(١) سورة النور - آية ٥٤

(٣) سورة البقرة - آية ٢٧٢

واستهزأهم به فلأنه ﷺ لم يتململ ولم يتضرر ، بل حبس آلامه
وكنتم أشجانه حتى نزل الوحي معلنا عن هذا الاحتمال الكريم
والصبر الجميل ، وذلك في قوله تعالى :
«ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون»^(١)

الموقف الثاني : عندما مات عبدالله بن رسول الله هلل
الكافرون واستبشروا ، وتولى العاص بن وائل التعبير عن
مشاعرهم ، قال : لا يهمنكم بعد اليوم أمر محمد فقد أصبح
أبتر ، ومهما طال به العمر فسيقضى بعد حين نجه ، ولا ولد له
ينهض بالأمر من بعده وينافح عن ميراثه الفكرى فلا يلبث أن
يذبل وتذروه الرياح .

ويشتمل هذا الموقف على جانبين : الأول هو حق الرسول فى
أن يكون له ولد من صلبه ، والثانى هو تلك الضربة الموجهة التى
وجهها العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ لأن ما يمس المرء من
السنة السوء إن صادف حقيقة فقد أصاب مقتلاً .

وبالنسبة للجانب الأول ، فمحمد بشر ، وهو عربى ابن
مجتمع بلغ به حب الذكور أن كان الرجل يسود وجهه إذا بشر
بالأنثى ويصبح نهباً لصراع مرير ، أبقى عليها مكرهاً أو يودعها
الأرض ويهيل عليها التراب .

(١) سورة الحجر - آية ٩٧

وما على محمد القرشى من شيء إن تآقت نفسه أن يرزقه الله
بصبي آخر . أما محمد رسول الله فقد كان من حقه ، وهو
صاحب الدرجة العالية ، والمكانة الرفيعة ، أن يتضرع إلى ربه
كما فعل زكريا في نفس الموقف ، فيقول «رب لا تذرني فرداً
وأنت خير الوارثين»^(١)

لكن ذلك لو حدث لأفصح عن تعارض ما بين إرادة الله ألا
يكون لمحمد ذرية من الذكور ، وبين رغبة محمد أن يكون له
ولد . وأدب محمد مع ربه فوق هذا ، فهو ﷺ يخضع لمشيئة
ربه في صورتها ، الإيجابية التي يصدر فيها التوجيه بالأمر «قل»
والواقعية التي يفرض الله فيها عليه قضاءه وقدره ، وامثال محمد
لمشيئة ربه في صورتها واحد ، فكما أنه لا يستطيع أن يصف من
كذب به بأنه كفر أو ضل ، أو أنه من أصحاب الجحيم ، فكذلك
لا يملك أن يرفع يديه إلى السماء متضرعاً - بعدما فقد ابنه -
«رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين» .

أما عن ذلك السهم المسموم الذي أطلقه العاص بن وائل فإنه
ﷺ لم يكن يملك رده أو الانتقام من صاحبه ، فكما أنه - فيما
يمس العقيدة ذاتها - يلتزم في الرد على المكذبين والمعرضين
والمعارضين بما يحدده له الوحي ، فإنه من باب أولى يلتزم بذلك
فيما يمس في شخصه وليس له أن يرد الاعتداء أو يدفع التعدي ما

(١) سورة الأنبياء - آية ٨٩

لم يأذن له الله .

لكن ، هل يكون قدره تلقى الصدمة وابتلاع الإهانة ثم كظم غيظه وكنتم ما يجيش فى صدره من غضب وانفعال ؟

إن إجابة هذا السؤال يحددها قوله تعالى «ما ودعك ربك وما قلى» فهذه الآية الكريمة لم تنزل - فحسب - لإنهاء موقف خاص انتاب القلتى فيه محمداً لانقطاع الوحي حتى تندر المشركون وقالوا: «إن رب محمد قلاه» ، هذه الآية نزلت لتعلن عن كفالة دائمة ورعاية مستمرة ومبدأ متبع ينعم فيه محمد بعناية وحماية ربه كمقابل لصبره على كتمان مشاعره ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى «واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا»^(١)

وإذا كانت مشاعر الأبوة الجريحة فى نفس رسول الله تتحرق شوقاً للانتقام ، فى حين أن محمداً لا يملك الرد ، فإن الله يدافع عن رسوله ، ويرد اللطمة على صاحبها فينزل قوله تعالى :

« إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلْ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ »^(٢)

وسواء أكان (الكوثر) نهراً فى الجنة أوتيه محمد ﷺ أو أنه الكثرة الكثيرة من كل خير وفضل ، فقد اشتملت آيات السورة الكريمة على :

(٢) سورة الكوثر

(١) سورة الطور - آية ٤٨

• إعلان محمد بإرادة ربه ألا تكون له ذرية من الذكور حتى ينصرف عن التطلع لهذا الأمر .

• تعويضه ﷺ عن هذا الحرمان بما هو خير منه وأبقى .

• الانتقام من العاص بن وائل ورد السهم الذى أطلقه إلى نحره .

فإمسك محمد عن الرد لا يعنى أن يصبح حرمه مستباحاً أو أن يمر العدوان عليه بسلام لأن الله يتولى حماية رسوله ويقوم بإفحام المتطاولين عليه ، ومعظم ما ورد فى القرآن الكريم من تجريح لأشخاص بعينهم كقوله تعالى «إن شئت لك هو الأبر» إنما كان لهذا الغرض ، ومثله أيضاً قوله تعالى «تب يدا أبى لهب وتب» فقد نزلت رداً على قول أبى لهب لمحمد ﷺ «تب لك سائر اليوم أما جمعتنا إلا لهذا» وذلك بعد ما نادى ﷺ حتى اجتمع عليه قومه وعرض عليهم الإسلام فكان أن بادره أبو لهب بهذه الإهانة ، وكان الرد الحاسم عليه من الله .

ولذات السبب نزل قوله تعالى فى زوجة أبى لهب «وامراته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد» وذلك لتعمدها إيذاء رسول الله وإلقائها الأشواك فى طريقه .

الموقف الثالث : فى بداية الدعوة شاءت إرادة الله أن تكون قبلة المسلمين إلى بيت المقدس ، لكن رسول الله ﷺ كانت له

رغبة شخصية أن لو كانت إلى البيت الحرام بمكة .

ولو تصورنا رسولا آخر مكانه لرأيناه ضارعا متوسلا إلى الله ،
فرغبات الأنبياء لا تقف حبيسة صدورهم ، إنما تتجسد فور
اختمارها في التماسات يرفعونها إلى الله .

فأمل زكريا تبلور في قوله «رب لا تذرني فردا وأنت خير
الوارثين» (١)

ورحمة نوح بابنه بدت في قوله «رب إن ابني من أهلي وإن
وعدك الحق..» (٢)

وبر إبراهيم بأبيه ظهر في قوله «سلام عليك سأستغفر لك ربى
إنه كان بى حفيا» (٣)

وإذا كان الله قد استجاب لتضرع زكريا ورزقه الولد ، فإن
الأمر بالنسبة لكل من نوح وإبراهيم عليهما السلام لم يكن
كذلك ، فبالنسبة لنوح كان رد الله عليه «يا نوح إنه ليس من
أهلك إنه عمل غير صالح..» (٤)

وأما إبراهيم فقد عدل عن طلبه من تلقاء نفسه كما يبين من
قوله تعالى «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها
إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ..» (٥)

(١) سورة الأنبياء - آية ٨٩ (٢) سورة هود - آية ٤٥ (٣) سورة مريم - آية ٤٧

(٤) سورة هود - آية ٤٦ (٥) سورة التوبة - آية ١١٤

لكن الثابت هو أنه ليس على الأنبياء حرج في أن يكون لكل منهم تطلعاته ورغباته ، وفي أن يعلنها ويبيدها حتى لو كشفت الأحداث فيما بعد عن استحالة إجابتها ، فهم جميعا يكشفون عما في صدورهم ويقولون .

أما بالنسبة لمحمد ﷺ المختص بالتفويض الإلهي «قل» فإنه لا يستطيع أن يقول ، وإذا كانت رغبته الدفينة بين الضلوع أن تكون قبلة المسلمين إلى المسجد الحرام بمكة ، فإن العليم بذات الصدور كما اهتم من قبل بمشاعر رسوله ، فإنه لا يهمل رغباته وفي اختصار معجز ينزل الوحي مفصلاً حالة الرسول النفسية (قد نرى تقلب وجهك في السماء) ومحققاً له أمنيته التي طال شوقه إليها «فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . . .»^(١)

ففيما يختص بمحمد رسول الله ﷺ فإنه يلزم التفرقة :

بين أقواله وأفعاله ، وهذه لا تتم إلا في حدود التوجيه الإلهي « قل » وذلك امتياز لم يتحقق لغيره من البشر أو الرسل .

وبين مشاعره وانفعالاته ، وهذه يستوى فيها مع غيره ، فهو يغضب ويرضى ، ويحب ويكره ، ويتمنى ويזהد ، لكن ذلك وغيره من الخواطر البشرية لم يكن له أن يتعدى حدود صدره قولا

(١) سورة البقرة - آية ١٤٤

على لسانه أو طابعا يؤثر على أفعاله .

ولقد رأينا من الانبياء من تطير دون مبرر .

ومن وعد بالاستغفار لمن لا يجب له الاستغفار .

ومن دعا الله أن يستأصل شأفة قومه .

وفى هذه المواقف وأمثالها قال كل رسول وكشف بقوله عما
يجول بخاطره ، وأفصح بلسانه عن وجهة نظره . . فالمبادرة إلى
القول وإبداء الرأى بالنسبة لهم هى المبدأ العام والقاعدة المتبعة .
أما بالنسبة لمحمد عليه الصلاة والسلام ، فقد ثبت لنا مما
سلف :

أن حرصه على هداية الغافلين من قومه واهتمامه باستمالة
المعرضين منهم كان يؤرقه إلى ما فوق الاحتمال والطاقة .
وأن سخريه السفهاء والمعرضين قد ملأت قلبه ضيقاً وكدرأ .
كما كانت له رغبات طال شوقه إلى رؤيتها ماثلة على أرض
الواقع .

وفى كل هذه المواقف كما فى غيرها فإنه صلوات الله وسلامه
عليه لم يعلن ولم يفصح ، ولولا نزول الوحي كاشفاً عما فى
صدره ما علم به بشر ولا ملك ، وبما لاشك فيه فإن ذلك لم
يكن أمراً يسيراً ، وهو بما فرضه عليه من كبت لانفعالاته الخاصة

قد حمّله عبثاً ثقيلاً ، فضبط المشاعر على هذا النحو ليس من شيم البشر ولا من سنن الرسل بل إن الملائكة لم تستطع عليه صبرا ، ولعل ذلك أن يفسر بعض المواقف التي خرج فيها الأمر من يده صلوات الله وسلامه عليه ، فكشف عما يجيش في صدره وأعلن عن وجهة نظره ، ولأن ذلك جاء على خلاف القاعدة ، فقد عني القرآن الكريم بإحصاء هذه المواقف والاهتمام بتسجيلها ، ومن ثم فلا مفر من دراستها .

الموقف الأول :

أعز فتى في قريش وأشدّهم شكيمة كان حمزة بن عبدالمطلب ، وهو عم رسول الله ﷺ ، كان قريباً منه في السن وقريباً إلى قلبه ، إذ جمع بينهما ذلك التوافق النفسى بين الأخوة والأتراب ، وحمزة مواقف مشهودة ، بدأها بقصة إسلامه عندما عاد من رحلة صيد - وهو بعد على دين آبائه - وبلغه أن أبا جهل نال من رسول الله وسبه وآذاه ، فدخل حمزة الكعبة مغضباً فضرب رأس أبى جهل بالقوس فشجّه شجرة منكّرة وقال : أتشتّمه وأنا على دينه فرد على ذلك إن استطعت .

وعن ذلك يقول ابن هشام في كتاب السيرة (لما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع) .

ويوم بدر خرج ثلاثة نفر من أشرف قريش وسادتها هم عتبة

ابن ربيعة وأخوه شيبه وابنه الوليد بن عتبة ودعوا المسلمين إلى
المبارزة ، فخرج لهم حمزة وعلى بن أبى طالب وعبيدة بن
الحارث ، فقتل حمزة عتبة الأب ثم شارك فى قتل الوليد الابن ،
لذا فيوم أحد كانت عين هند بنت عتبة على حمزة حتى قتل
فأسرعت إليه فمثلت به .

وغبار المعركة لم ينقشع بعد ، خرج رسول الله ﷺ يلتمس
حمزة فوجده قد بُقِرَ بطنه عن كبده ومُثِّلَ به فانتزع أنفه
وأذناه^(١)

اعتصر الألم قلب رسول الله ﷺ وملأته الأحزان ، لا لأن
حمزة أسد الله وأسد رسوله طريح الأرض قد فارقت الحياة ، بل
للتشويه الحاقد لجسده الطاهر ، وعبر صلوات الله وسلامه عليه
عن مشاعره فقال : لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت موقفاً قط
أغيظ لى من هذا^(٢) .

وثارت غريزة الثأر فى نفس رسول الله ، وترددت فى صدره
صرخات الانتقام فقال (لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن
من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم) .

وهنا ، فإن ما صدر عنه صلوات الله وسلامه عليه كان رد

(١) كتاب السيرة لابن هشام - الجزء الثانى - صفحة ٩٥

(٢) كتاب السيرة لابن هشام - الجزء الثانى - صفحة ٩٦

الفعل التلقائي لموقف عصيب ، ساهمت وشائج القربى والخلة في شحنه بالشدة والعنف ، ومثل هذه الانفعالات وإن كان من حق الرسول معاشيتها بحسبانه بشر مثلنا ، إلا أنه ليس له الإعلان عنها أو نشرها ، لكنه أمام ندالة المشركين وخستهم لم يتمالك نفسه ، ففضى بمبدأ في القصاص يتعارض مع قوله تعالى في اللوح المحفوظ «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأثني بالأثني..»^(١) ، وكذلك «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص..»^(٢) .

ولأن تقرير أحكام شريعة الله - بصفة عامة - لا يتم من خلال فورات الغضب والانفعال ، ولا يصاغ تحت وطأة وضغط الأحزان ، وأنه بالنسبة لمحمد عليه الصلاة والسلام بصفة خاصة يجب أن يكون عن أمر من ربه ، لذا فإن الوحي لم يمهل رسول الله إلا بقدر ما أدى الصلاة على قتلى أحد ثم نزل قوله تعالى «وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»^(٣) . فعدل صلوات الله وسلامه عليه عن قراره وعفا وصبر ونهى عن المثلة.^(٤)

(٢) سورة المائدة - آية ٤٥

(١) سورة البقرة - آية ١٧٨

(٣) سورة النحل - آية ١٢٦

(٤) كتاب السيرة لابن هشام - الجزء الثاني - صفحة ٩٦

الموقف الثاني :

اختلف أهل التأويل فى سبب نزول قوله تعالى **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ** . . (١)

قال بعضهم : إنه كانت لرسول الله ﷺ جارية فغشيها فبصرت به إحدى زوجاته فطلب منها أن تكتم عليه وحلف لها ألا يقرب جاريته . . وقال آخرون : إنه كان يمكث عند زوجته زينب فيشرب عندها عسلاً فتواطأت عائشة وحفصة ليصرفاه عن ذلك ونجح تديبرهما فأقسم رسول الله ﷺ ألا يعود لشرب العسل . لكن الطبرى لا يعول كثيراً على هذه الروايات ، ويقول فى تفسيره : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : كان الذى حرمه النبى ﷺ على نفسه شيئاً كان الله قد أحله له ، وجائز أن يكون ذلك كان جاريته ، وجائز أن يكون كان شراباً من الأشربة وجائز أن يكون كان غير ذلك ، غير أنه أى ذلك كان فإنه كان تحريم شيء كان له حلالاً . (٢)

وسواء اعتمدنا على ما طرحه المحدثون ، أو أخذنا بما استخلصه الطبرى يكون الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد ارتأى للملابسات خاصة به تحريم بعض ما أحله الله .

(١) سورة التحريم - آية ١

(٢) تفسير الطبرى . الجزء الثامن والعشرون - صفحة ١٥٨

ولأن التحريم هنا لم يكن عن أمر من الله ، بل عن اجتهاد شخصى استقل الرسول بتقدير مبرراته ، لذا فسرعان ما نزل الوحي بقوله تعالى «يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك» ليذكر الرسول بضرورة استلھام السماء قبل إصدار حكمه أو إبداء رأيه ، وأنه ما كان له أن يقضى بتحريم الحلال - حتى فيما يختص به وحده - دون بيان من الله .

الموقف الأخير :

فيما نحن بصدد سجله القرآن الكريم فى قوله تعالى «عسى وتولى أن جاءه الأعمى . .» وذلك عندما أعرض صلوات الله وسلامه عليه عن ابن أم مكتوم لما دخل عليه وهو يحاول استمالة بعض ذوى النفوذ من كفار قريش وتأليف قلوبهم ، وبالرغم من أن الأمر لم يشتمل إلا على قدر من عدم الارتياح بدا على ملامح الرسول فإن القرآن الكريم لم يشأ أن يدع الموقف يمر دون تنبيه إلى الوضع الخاص لمحمد عليه الصلاة والسلام ، فحيثما ظهرت مشاعره وبدت سافرة أمام الآخرين ولو فى قدر يسير من انقباض عضلات الوجه عبوساً أو انبساطها ابتساماً ، فإن ذلك يجب أن يكون فى إطار القاعدة العامة فلا يتم إلا بأمر من الله ، وفى بيان ذلك نزل قوله تعالى «عسى وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى» .

تلك هي أهم المواقف التي جاءت استثناء على القاعدة العامة ، واهتمام القرآن الكريم بحصرها ومعالجتها لم يؤكد القاعدة العامة فحسب ، بل وأكد أن التزامه صلوات الله وسلامه عليه بالتوجيه الإلهي ، لم يقتصر على المواقف القرآنية وحدها بل شمل كل ما صدر عنه سواء وهو يتعامل كرَسُول من عند الله ، أو هو ينطلق بين البشر ويمارس حياته كواحد منهم ، فحيثما أدى اجتهاده البشرى إلى ما لا يطابق حكم الله سارع الوحي بالنزول ، لا لمعاقبة الرسول ومحاسبته - كما مال معظم المفسرين - بل لتذكيره بالقاعدة العامة وردّه إلى الالتزام بها حتى يكون المرجع والأساس فى أقواله وأفعاله صغيرها وكبيرها ، هو أمر الله لا إرادة البشر .

بما سلف نكوّن قد بلغنا خاتمة المطاف فى تلك الرحلة التى استهدفنا بها جمع كل ما سجله القرآن الكريم أو أشار إليه من أقوال لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وفيها أحطنا بالقدر المحدود الذى ورد على لسانه من خلال الفعل الماضى «قال» أو المضارع «يقول» وبالفىض العظيم الذى قاله عن أمر ربه من خلال الفعل «قل» كما حددنا القاعدة العامة التى تحكم أقواله وأفعاله والاستثناءات التى وردت عليها ، وخلال ذلك لم نطالع ما يعتبر التماساً لدليل على وجود الغيب من مثل : «رب أرنى كيف تمحى الموتى» أو «رب أرنى أنظر إليك» .

كما لم نصادف ما يستشف منه أنه محاولة للنفاذ من بين

أستاره ، من مثل : «أنتى يحيى هذه الله بعد موتها» أو «اللهم
رينا أنزل علينا مائدة من السماء» .

وفضلا عن ذلك فإن أقواله صلوات الله وسلامه عليه لم
تتضمن على طلب شخصى أو رغبة ذاتية أو شكوى ظاهرة أو
خفية ، من مثل :

لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين

إبراهيم عليه السلام

رب لمحنى من القوم الظالمين موسى عليه السلام

من أنصارى إلى الله عيسى عليه السلام

رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه

يوسف عليه السلام

إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق نوح عليه السلام

رب هب لى من لدنك ذرية طيبة زكريا عليه السلام

رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدى

سليمان عليه السلام

هذا الإعراض من جانبه صلوات الله وسلامه عليه عن الطلب
والالتماس أو التبرم والشكوى الذى لاحظناه فيما سجله القرآن

الكريم له ، نلاحظه بذات القدر فيما روى عنه من أحاديث ، حتى إن ذلك الالتزام يمكن اعتباره مقياساً لمراجعة الأحاديث المحدودة التي خرجت عن هذا الإطار والتي من أبرزها الحديث المشهور : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس . أنت أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربي . إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمرى .

وطبقاً للمقياس الذي أوضحناه فإن علو نبرة الشكوى في الفاظ هذا الحديث ووضوح القلق مما آلت إليه الأمور تكفي للحكم بضعفه ، وقد ثبت أنه كذلك ^(١) .

فمحمد ﷺ ، وإن كان رسولاً كغيره من الرسل ، إلا أن المراجعة الشاملة لأقواله وأفعاله ومقارنتها بأقوال وأفعال غيره من الرسل قد أكدت أن له نهجاً يختلف عن نهجهم ، فهو وإن كان يتفق معهم في وسائل وأساليب التفكير ، ويتمثل وإياهم في توالد وتطور الأحاسيس ، إلا أنهم يفعلون ويتأثرون ويقولون ، أما هو فإن انفعلاً أو تأثراً فلا يقول . وإطلاق حرية القول لرسل

(١) راجع في بيان ضعف هذا الحديث تعليق الأستاذ المحدث العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني بهامش الصفحة رقم ١٢٢ من كتاب «فقه السيرة» للشيخ محمد الغزالي .

الله أتاح لهم الخلاص من كل ما حاك في صدورهم أو تبادر إلى أذهانهم فطلبوا من ربهم وتوسلوا والتمسوا ، أما محمد ﷺ فإن استغلاله بالعناية الإلهية قد ألزمه كتمان مشاعره وكبح جماح خواطره ، وبالتالي لم يرصد له القرآن الكريم طلباً خاصاً أو رغبة ذاتية كما لم يسجل له محاولة لاختراق حجب الغيب كالتى سجلها لهم .

لكن هذا الذى انتهينا إليه ، وإن أفاد أن محمداً ﷺ لم يقل مثل غيره من الرسل ولم يسع مثل سعيهم ، إلا أنه لا ينفى أن يكون قد خطر بباله من الآراء والأفكار ما خطر ببالهم ، كما لا يعنى أنه ﷺ كان بمنجاة من التعرض لمثل ما تعرضوا له ودفعهم إلى طرح تساؤلاتهم عن الغيب .

فهو بشر مثلهم يسمع ويرى ، ويتحقق له بالحواس ما لا يتحقق له بدونها ، وإذا كانت أقواله وأفعاله لا تتم إلا فى حدود التوجيه الإلهى فإن تصوراته وأفكاره لا تشكل إلا فى حدود قدراته التى يتساوى فيها مع الآخرين ، وهو ﷺ يخضع للقاعدة العامة التى أوضحها قوله تعالى «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» .

والآية الكريمة التى اعتمدنا عليها لبيان طبيعة رسل الله وهى قوله تعالى «قل إنما أنا بشر مثلكم..» نزلت فى شأنه ﷺ .

فبشريته لا تختلف عن بشرية ذلك الذى مر على قرية فتساءل :

« أنى يحيى هذه الله بعد موتها » .

ولا عن بشرية إبراهيم التى غلبت فقال :

« رب أرنى كيف تحيى الموتى » .

ولا عن بشرية موسى التى سادت وتحكمت فطلب :

« رب أرنى أنظر إليك » .

لكنهم يملكون حق « القول » ولهم حرية إبداء الرأى ، أما محمد عليه الصلاة والسلام فإن أدبه مع ربه ، وتقديره لمقامه قاب قوسين أو أدنى قد حد من حرите فى الكشف عن انفعالاته الشخصية أو فى عرض تساؤلاته الذاتية ، وعلى سبيل المثال فلو أنه مر بالبحوت الذى مر به إبراهيم عليه السلام ورأى دواب البحر تنهش جسده ، وسباع البر تمزق أطرافه وطيور السماء تتخطف أجزائه ، وانتهت الحيرة التى بدأت بالتعجب من « كيف يُجمع هذا من بطون هؤلاء » إلى التساؤل عن « كيفية إحياء الموتى » لما سأل محمد عليه الصلاة والسلام ربه ما سأل إبراهيم عليه السلام .

لكن هذا السلوك من جانبه ﷺ لا يتوافق مع ما سبق أن أوضحناه من أن سعى رسل الله إلى التماس دليل على الغيب كان سعياً مشكوراً وجهداً مطلوباً .

وإذا كان محمد عليه الصلاة والسلام مثلهم ، تطوف به مثل الأفكار التي تطوف بهم ، وتراوده ذات التساؤلات التي تراودهم ، غير أنه لا يقول كما قالوا ، وبالتالي فإنه لم يسع كما سعوا ، فكيف اكتمل إيمانه بوجود عالم الغيب ؟

لإجابة هذا السؤال لابد من استعراض مركز لبعض ما سبق أن فصلناه من قبل وهو :

• إن اقتناع البشر بما لا تمسه حواسهم يتساوى مع النقش على الماء سرعان ما ينمحي أثره ، والتحدى الحقيقي للإنسان هنا يتمثل - بصفة خاصة - فيما فرض عليه من إيمان بوجود عالم الغيب . وبالتالي بات الإيمان به مشكلة إنسانية عامة ، يتوقف أمامها متسائلاً الإنسان العادى أو الرسول من عند الله .

• فيما يختص بعامة البشر فقد بينا أن رحمة الله قد يسرت لهم الأمر ، إذ لم يفرض الله عليهم إيماناً كاملاً بالغيب ، كذلك الذى اشترطه فى الإقرار بوجوده ووحدانيته ، واكتفى منهم بتجنب الإصرار على إنكار الغيب وبمخالفة حجة من خردل من الإيمان .

• بالنسبة لرسول الله ، فإن مكانتهم عند الله ، بالإضافة إلى حريتهم في «القول» قد حلت لهم المشكلة ، وقد رصدنا لأصحاب الرسالات الكبرى منهم محاولات كشفت عن عدم اقتناعهم بإيمان منقوص ، إذ سعى كل منهم إلى التماس دليل يرفع إيمانه بالغيب إلى درجة اليقين .

• بالنسبة لمحمد عليه الصلاة والسلام فقد انتهينا - بعد استعراض أقواله - إلى أنه كبشر فإن احتمال أن يراوده التساؤل عن الغيب قائم ووارد ، لكنه كرسول بلغ من الرفعة ما لم يبلغه أحد . فإن احتمال أن يتساءل عن الغيب غير قائم وغير وارد .

وفى ضوء ما سلف طرح ما يلي :

هل يجوز أن نحل مشكلة الإيمان بالغيب بالنسبة للجميع بشراً ورسلاً ثم تستعصى على أشرف الخلق وتبقى بلا حل ؟

هل من المقبول أن يقف إيمان محمد عليه الصلاة والسلام بالغيب عند الحد المسموح به لعامة البشر ، فيبشر بجنة ويخوف من نار وهو لم ير ولم يشاهد ؟

هل من المستساغ أن يُترك محمد المختص بالعناية الإلهية والإرشاد الرباني لتداعيات الأحداث تفجر في صدره التساؤل عن الغيب ، فيطرحه مع ما في ذلك من خروج على الإطار العام الذي يحدد أقواله وأفعاله أو يكتمه ليوقظ في صدره بين الحين

والحين وساوس الشك وليشير مع سباحات الفكر مكامن القلق ؟
 إن محمداً ﷺ بشر ، ثبت من قوله «ليس الخبر كالمعاينة» أن
 بلوغ اليقين لا يتيسر كقاعدة إلا بالدليل الحسى رؤية أو سماعاً .
 وهو رسول يحتاج إلى إيمان كامل بالغيب ليكون بلاغه للناس
 على ثقة ويقين .

لكنه - كما سلف وبيننا - لا يملك أن يقول «رب أرنى . . .»
 فبعد تشريفه بالتفويض الإلهى «قل» ليس له أن يتثبت أو أن
 يتساءل أو يشك .

وإذا كان ما تحتاجه بشرية محمد يتعارض مع رفعة نبوته . .
 فكيف يتسنى التوفيق بين حاجته - كبشر - للمعاينة وبين ما ثبت
 من سيرته - كنبى - أن قربه من ربه يمنعه من طلبها ؟

واضح أننا لم نستدع ذلك السؤال ، وأنه هو الذى طرح نفسه
 وأن تجنب الإجابة عليه سيجعلنا كالنعام الذى يدس رأسه فى
 الرمال ليتخلص مما يريه ، أما معالجته ، فإنها وإن دفعت بنا إلى
 الدوران فى حلقة مفرغة ، إلا أنها ستؤكد فى النهاية أن المخرج
 الوحيد هو أن يتاح لمحمد عليه الصلاة والسلام رؤية الدليل على
 عالم الغيب دون طلب منه ، بل وقبل أن يثور فى صدره التساؤل
 أو الشك .

هكذا تحدد السبيل وفرض الحل نفسه ، لم يكن هناك بد

احتراماً لبشرية محمد ، وحفاظاً على قدسية ونقاء نبوته من أن يسرى ويعرج به ، لا لأن يرى مشهداً من مشاهد عالم الغيب كغيره من الرسل ، إنما ليرى ذلك العالم جميعه ، كل الحجب تزال وكل الأستار ترفع حتى تطلع هذه النفس الشريفة فتسمع وترى فيتحقق لها بالتالى أعلى درجات اليقين الذى لم تسع إليه بل جاءها هو يسعى .

وقبل المضى فى بسط هذا الرأى لنجيب أولاً على التساؤلات الآتية :

لماذا البحث عن حكمة الإسراء والمعراج ؟

وفيما كان كل ذلك العناية الذى خضناه لتحديد الأسباب التى فرضت القيام به ؟

لقد اشتمل الإسراء والمعراج على رحلة خارقة للعادة ، فى مرحلتها الأولى انتقل الرسول على الأرض من مكة الى بيت المقدس حيث جُمع له الأنبياء وصلى بهم ، ومن هناك بدأت المرحلة الثانية إلى الملاء الأعلى ثم عاد إلى مكة وذلك كله فى جزء من الليل .

فالرحلة فى مجملها وتفصيلاتها لا تخضع للمقاييس البشرية، ورغم غرابتها وخروجها على المألوف فلا يمكن إدراجها فى باب

«المعجزات» التى يؤيد الله بها رسله لأنها لم تقع على أعين الناس ولم يتم التحدى بها ، ومن ثم فهناك أسباب دعت إلى هذه الرحلة وفرضت القيام بها ، والمؤكد أن تلك الأسباب كانت بالغة الخطورة والأهمية لأن الوسيلة إليها كانت شاذة وغير عادية ، ويلفت النظر أن هذه الرحلة الخارقة تكاد تنفصل تماماً عن أحداث الدعوة ، وآيات القرآن الكريم شديدة الوضوح فى اختصاصها بالرسول واقتصار أثرها عليه ، فالإسراء تم (لنبيه - هو - من آياتنا) والمعراج (لنبيه - هو - من آيات ربه الكبرى) .

وفضلاً عن ذلك فالعقيدة الإسلامية قد التزمت منذ بدايتها بالنهج الموضوعى ولم تعتمد فى كافة خطواتها إلا على الدليل العقلى إلى أن وقع الإسراء والمعراج فجاء كاستثناء حاد على هذا الخط الأساسى بتناقضه مع ما سبقه أو تلاه من أحداث .

كذلك فقد صادف وقوع الإسراء والمعراج مرحلة كانت الدعوة تعاني فيها من مصاعب جمّة ، ووقت كان الرسول يعمل جاهداً لتوسيع نطاقها فجاء الإسراء والمعراج ليزيد من المتاعب التى تواجهها وليساهم فى إحكام الحصار حولها ^(١) .

وعندما يكون الحدث خارقاً للعادة لكنه ظاهرياً غير ذى صلة بالدعوة ، وعندما يبدو - رغم أهميته وخطورته الذاتية -

(١) راجع فى تفصيل ذلك كله كتابنا (حقائق الإسراء والمعراج) .

متناقضاً مع باقى أحداثها ، وعندما يكون أثره المباشر هو خسارة الدعوة لبعض أنصارها .

فالسؤال الذى يجب أن يشيره الحدث هو : لماذا ؟ وما هى الأسباب التى حتمت القيام به ؟ . . وما هى النتائج التى حققها ولم تكن لتتحقق بدونه ؟

فذلك من شأنه الكشف عن أهميته وتحديد ارتباطه بغيره من الأحداث وبيان أثره فى بلوغ الدعوة هدفها النهائى .

وعلى ما بينا فى كتابنا (حقائق الإسراء والمعراج) فإن الفكر الإسلامى فى مرحلته الأولى والثانية لم يشغله إلا التساؤل عن (كيفية) الإسراء والمعراج ، أكان بالروح أم بالجسد ، رؤيا فى منام أم حقيقة وفى اليقظة ، وإذا كان علماء المرحلة الثالثة قد ساروا على نهج القدماء ، إلا أن فكرة وجود سبب أو أسباب حتمت القيام بهذه الرحلة قد راودت عدداً غير قليل منهم فاجتهد بعضهم وطرحوا تصوراتهم ، وتبعهم الباقون حتى أصبحنا بصدد إجماع على طائفة من الآراء ما أن يلوح التساؤل عن حكمة الإسراء والمعراج حتى تطرح كلها أو بعضها ، ونستعرضها فيما يلى :

أشهر هذه الآراء وأكثرها شيوعاً يربط بين الإسراء والمعراج وبين وفاة أبى طالب والسيدة خديجة ، فيقرر أن الإسراء والمعراج قد استهدف تعزية الرسول وتخفيف أحزانه لوفاة زوجته وعلاج

إحساسه بالضيق لافتقاده حماية عمه .

بعض الباحثين يضيف إلى ما سلف أن آثار عنت المشركين وأذاهم وصدودهم وإعراضهم قد أصابت الرسول بجروح عميقة فكان الإسراء والمعراج ليس فقط رعاية لمشاعره بعد مصابه في عمه وزوجه ، بل ولتطبيب جراحه وتخليصه من آلامه .

من الآراء المتداولة أنه بعد عشر سنوات من الجهاد المتصل في البلاغ عن الله ، فقد احتاج الرسول إلى استراحة يجدد فيها قواه ويستعيد نشاطه ، فتم الإسراء والمعراج للترفيه عن الرسول وتسليته بكل ما في الرحلة من تجديد للنفس واسترجاع للقوى وبكل ما في النزعة من دواعي الاسترواح والترويح وإزالة الهموم .

من الآراء التي تلقى قبولا لدى الباحثين أن الرحلة كانت لتكريم الرسول والاحتفال به بعد أن جفته الدنيا وضافت به ، وأن الإسراء كان للاحتفاء به في الأرض أما المعراج فكان للترحيب به في السماء .

تلك هي الآراء التي استقرت في الفكر الإسلامي الحديث كأسباب فرضت الإسراء بمحمد عليه الصلاة والسلام والعروج به ، وفي عرضنا لها لم نوجز بما يخل بأى منها بل أوردناها بحذافيرها بعد تخليصها ، سواء من المحسنات البلاغية والأساليب الإنشائية

التي عرضت من خلالها ، أو التهويل والمبالغة التي أحاطت بها ونفخت فيها. (١)

وكان رأينا - منذ عشرين عاما - ولا يزال حتى اليوم أن هذه الآراء لم تمحص بما فيه الكفاية ، وأن العقل فيها قد أسلم قياده للعواطف فكانت النتائج غير رشيدة وغير متزنة .

فالقول بأن وفاة السيدة خديجة قد أثرت على كفاءة الرسول وقدرته ، وأن موت عمه قد فت في عضده ونال من عزيمته ، وأن إعادة الحال إلى ما كانت عليه هي التي استدعت الإسراء والمعراج . . هذا القول ينسب الضعف والتهافت إلى رسول هو القمة في الثبات والصبر ، ويتهمه بالعجز عن احتمال ما يتلى به عامة الناس وخاصتهم ، مؤمنهم وكافرهم فيجزعون له حين من الوقت ثم يبرءون منه دون ما حاجة إلى مثل هذا الحدث الخارق .

أما القول بأن متاعب تبليغ الدعوة قد ثقلت على محمد عليه الصلاة والسلام وأرهقته ، وأن عنت الكافرين والمعاندين قد أسخن قلبه ، وأن الإسراء والمعراج كان علاجاً لتبعات ذلك الضيق والعدوان . . فهو كسابقه يدور في فلك الإصرار على نسبة العجز والتراخي إلى أكثر البشر قوة وقدرة واحتمالا .

(١) راجع تفاصيل هذه الآراء في كتابنا (حقائق الإسراء والمعراج) من صفحة

وبالنسبة للادعاء بأن الرحلة تمت للترفيه عن الرسول وتسليته ، فالمرجح - مع افتراض حسن الظن - أن مروجي هذا الرأي قد ساءهم إصرار غالبية الكتاب على الربط بين أحزان الرسول ومتاعبه النفسية وبين الإساءة والمعراج ، خاصة وأن بعضاً منهم -سعيًا لتأكيد هذه الرابطة- قد بالغ في إضفاء الأسى والكآبة على حياة الرسول بعد وفاة عمه وزوجه ، فدفعهم ذلك من باب التجديد إلى تقديم تفسير أكثر بهجة وإشراقاً ، فقرروا أن الرحلة الحارقة تمت للترفيه والتسلية .

يبقى آخر هذه الآراء وأقلها انتشاراً ، وهو أن الرحلة كانت لتكريم الرسول والاحتفاء به ، وطبقاً للمقاييس العقلية فقد يبدو هذا الرأي أقرب إلى القبول من غيره ، خاصة بالنسبة لرحلة الإساءة التي تحقق فيها نوع من التكريم بجمع الأنبياء لمحمد وصلاته بهم . لكنه لا يحل المشكلة بالنسبة للجانب الأهم من الرحلة ، فاطلاع الرسول على الجنة ونعيم أهلها ، والنار وشقاء أصحابها ما له بالتكريم صلة فضلاً عن أن التكريم يرتبط عادة بالعلانية ، والرحلة كلها تمت في غفلة من العيون وستر عن الأذان .

بعد هذه النظرة العاجلة لكل من تلك الآراء على حدة ، فإنه يلزم التنويه إلى أنها كلها تتعارض مع الثابت والصحيح من سنة رسول الله ، فهي تصوره ضائعاً لفقد عمه ، منهراً لوفاة زوجته ،

عاجزاً عن احتمال عنت المشركين ومضايقاتهم . والغريب أن هذه الاتجاهات الخاطئة لم تتجسد على هذا النحو إلا لتبرير رحلة الإسراء والمعراج ، واللافت للنظر أنه رغم مجافاتها للمنطق وتناقضها مع أبسط درجات التفكير فإنها جسمت على صدر الفكر الإسلامى دون أن تحظى بأى قدر من الدراسة أو التمحيص (١) .

إن الأقرب إلى التصور ، والأكثر اتفاقاً وحسن التدبير هو أن ما اشتملت عليه رحلة الإسراء والمعراج من غرابة ، وما حفلت به من خرق للعادة إنما استهدف غاية أكبر من التسلية والترفيه ، وأهم وأخطر من مسح الآلام أو تخفيف الأحران ، والنتائج الفعلية للرحلة تؤكد ذلك ، فمتاعب الرسول بعدها تزايدت ، والخرج الذى يواجهه تضاعف ، ويكفى أن كفار قريش كانوا أحرص الناس على إذاعة خبر الإسراء بل إن محمداً عليه الصلاة والسلام - عندما أعرض عن تحذير ابنة عمه (أم هانئ) وأصر على الخروج إلى الكعبة لإعلان الخبر - كان يرى أن ما سيلقيه على أسماع القرشيين غير قابل للتصديق وأنه لن يجز عليه إلا المتاعب .

(١) طوال السنوات العشرين الماضية - التى أعقبت الإنتهاء من تحرير مسودات هذا الكتاب - وحتى العام الهجرى الحالى (١٤١٥) لم يكن لدى الباحثين والمتحدثين غير تلك الآراء المستهلكة يقرعون بها أسماع المسلمين فى ذكرى الإسراء والمعراج كل عام ، يرددونها فى إصرار ، ويفخر واعتزاز من يكتشفها لأول مرة .

لقد غفل الذين روجوا لتلك الآراء أنهم ينفون عن محمد عليه الصلاة والسلام صفة (الأسوة الحسنة) التي اختصه الله بها من دون الخلق جميعاً ، فإذا تضعضت نفسه لفقد عمه ، وإن تزلزل كيانه لوفاة زوجه ، ولو تأثر لصدود قومه وأذاهم . . ثم استعصى علاج ذلك إلا بالإسراء والمعراج ، فهو إذن ليس أسوة تتبع ولا قدوة تحتذى .

لقد كان محمد سيد المرسلين لأنه كان سيد العارفين بتكاليف الرسالة وإنها ليست بعاصم من الابتلاء فى النفس والأهل ، بل هى مدعاة للمزيد ، ولقد هجر منذ نزل عليه جبريل فى الغار حياة السكينة والسلامة والدعة ، وخاض امثالاً لأمر ربه جهاداً متواصلاً لتبديل قلوب قست وتحجرت ولتغيير نفوس فسدت والتوت ، وعلم أنه كالدعاة قبله سيفضحى هدفاً للسفهاء ومضغة للمستهزئين ، ووطن نفسه على أن يثبت ويثابر ، ويصبر ويصابر ليضرب المثل لاتباعه باعتبارهم حملة دعوة ثقيلة ستجابه إلى يوم الدين مكر الحاقدين والكارهين ، وعداء المتعصبين والمستكبرين .

لم يكن صلوات الله وسلامه عليه من الحالين بأن توفر له النبوة فراشاً من حرير وبيتاً من زخرف وحفظة وحجاباً يفسرون القلوب على الالتفاف حوله والإيمان به ، ولو أصابه من المحن أضعاف أضعاف ما أصابه ما تملل ولا تداعى ولا اهتز ، ونحن لا ننفى أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يحزن لفراق أحبائه

ويتأثر لرحيل المقربين إليه . ولا ننكر أن عنت المشركين وأذاهم كان يثقل عليه ، لكن ما نقول به هو أن الآثار السلبية لذلك كله لم تصل إلى حدّ أن يصبح الإسراء والمعراج هو العلاج الوحيد الذى بدونه تبقى - تلك الآثار - كمعوقات تحول بين الرسول وبين أداء مهامه النبوية على الوجه الأكمل ، وبعبارة أخرى ، فإن الإسراء والمعراج لم يكن له أدنى صلة بذلك الابتلاء الذى أصاب الرسول فى نفسه أو فى أهله واحتمله صابراً عليه راضياً به .

وعندما نقرُّ بضرورة المواءمة بين العلة والدواء ، والتوافق بين النتيجة والأسباب فسيؤكد لنا أن المبررات التى طُرحت تعليلاً للإسراء والمعراج جاءت أبعد ما يكون عن الصواب ، ولا نعتقد أن هناك عاقلاً واحداً يمكن أن يسلم بأن الهدف من الإسراء والمعراج كان :

تعزية الرسول فى وفاة السيدة خديجة وتخفيف أحزان فراقها له ، أو طمأنته وتبئته بعد افتقاده لدعم وحماية عمه ، أو تخليصه من آثار عنت المشركين واجتراء سفهائهم عليه ، أو تسليته والترفيه عنه .

فما هى الصلة بين تلك الأهداف وبين إتاحة الفرصة لرسول الله ﷺ ليطلع على الجنة ونعيم أهلها والنار وشقاء أصحابها ، فضلاً عن أن بلوغ ما سلف - على فرض احتياج الرسول إليه -

لم يكن يستدعى حدثاً كالإسراء والمعراج فيه من دواعى الإثارة والاستفزاز ما قد يؤدى إلى نتائج تتعارض بالقطع مع المستهدف والمطلوب .

ويبقى بعد ما سلف فيما يختص بتلك الآراء أن نشير إلى أمور منها :

- إنه يتعين التفرقة بينها وبين ما قدر لها من قبول وانتشار ، فالآراء فى ذاتها جاءت مجانية للصواب شكلاً وموضوعاً ، أما الترحيب الحار الذى حظيت به فقد كان تعبيراً عن ارتياح عام لسد فجوة واسعة فى الفكر الإسلامى كان من المحتم أن يشير بقاؤها عديداً من علامات الاستفهام والتعجب ، ذلك أن الاقتصار فى دراسة حدث الإسراء والمعراج على كيفيته ووقائعه دون بيان الحكمة منه هو بمثابة إفراغ له من محتواه بما يجعله أقرب إلى قصص ألف ليلة وليلة التى تستهدف الإثارة والتشويق والإبهار .

- تعزيزاً لوجهة نظرهم ، فقد انحاز معظم الباحثين عند عرض الآراء سالفه البيان إلى المغالاة فى تأكيد اعتماد الرسول على حماية عمه كى يضاعفوا من إحساسه بالضيق والهوان بعد وفاته ، كما عمدوا إلى المبالغة فى بيان ارتكابه لدعم وتأيد زوجه كأساس يقيمون عليه ادعاءهم بانهياره بعد رحيلها . . وفى هذا الصدد فلقد أدى الحماس غير المنضبط والاندفاع فى الانتصار

للرأى غير الواعى إلى عديد من الافتراءات والمغالطات التى
ألحقت بسيرة أكمل الخلق وأشرفهم إساءات بالغة . (١)

بانتها ما سلف نكون قد فرغنا من هذا الاستطراد الذى تطرقنا
إليه وتدارسنا فيه ما استقر عليه الباحثون كأسباب فرضت الإسراء
بمحمد ﷺ والعروج به ، وإذ أثبتنا ضعفها وتهافتها فإننا نعود
لاستكمال ما كنا قد توقفنا عنده وهو :

- إن ارتفاع إيمان رسل الله بوجود الغيب إلى درجة عين
اليقين لو لم يكن مشروعا لما سعوا إليه ، ولو لم يكن لازما لما
استجاب الله لهم .

- إن محمداً ﷺ ليس كعامة البشر ولا دون غيره من الرسل ،
وبلوغ إيمانه بوجود الغيب إلى حد عين اليقين كان هاما لبشريته
وضرورياً لشرف نبوته .

- فى حدود قدرات البشر الحسية فإن المعاينة دون غيرها هى
التي تحقق ذلك القدر من اليقين .

- إن محمداً ﷺ بعدما شرف بالتفويض الإلهى «قل» لم يكن
له أن يقدم على ما أقدم عليه غيره من الرسل من سعى للنفوذ من
خلال أستار الغيب إذ لا يعقل أن ترد آية بمعنى «قل رب أرنى
كيف تحيى الموتى» .

(١) راجع فى بيان ذلك كتابنا (حقائق الإسراء والمعراج) من صفحة
١٣٢ - ١٦٠

وعلى ذلك فإن دعوة محمد للإسراء والمعراج كانت أمراً مقدراً وحتمياً باعتبارها الوسيلة العملية الوحيدة للارتفاع بإيمانه بوجود الغيب إلى درجة عين اليقين .

وهذا الذى ندعيه لا يقوم فحسب على ما فصلناه فى هذا الكتاب من مبررات مستساغة عقلاً وشرعاً ، بل إنه يجد سنداً فيما يلى :

❖ ما صرحت الآيات به من أن الإسراء تم . . لنزيه من آياتنا ، والمعراج . . ليرى من آيات ربه ، فالهدف من الرحلة بشقيها كان (الرؤية) التى يتوافر بها الدليل المادى الذى يتلاءم وقدرات البشر الحسية ، وإذا كان رسل الله قد التمسوها وسعوا إليها (رب أرنى) فإنها تتاح لأشرف الخلق دون طلب ويدعى إليها على غير انتظار أو تطلع (ليرى) .

❖ ما اشتملت عليه الرحلة من وقائع كشفت عن طواف الرسول بأرجاء عالم الغيب كله ، ففى الإسراء تحقق (البعث) باللقاء محمد بالسابقين من رسل الله الذين نزل الوحي بقصصهم وصفاتهم ، فها هم أمامه بأجسادهم يقبلون عليه ويحتفون به ويؤمهم فيقتدون به ، وفى المعراج انفتحت لمحمد صفحة الحساب والجزاء فاطلع على نماذج من أعمال الدنيا وما تصير إليه فى الآخرة ، فالجاهدون فى سبيل الله ينعمون فى جنات أكلها

دائم ، كلما حصدوا ثمرها عاد كما كان .

والذين يتأقلون عن الصلاة ترضخ رؤوسهم بالحجارة وخطباء
الفتنة فى الدنيا تقرض الستهم وشفاههم .

هكذا تتابعت مشاهد الجزء والحساب أمام محمد لسمع ويرى
كيما يتحقق له من اليقين ما يتلاءم مع بشريته ويتناسب وعلو
درجته ، وما يؤهله للمثول فى حضرة ربه ليتحقق هنالك من
درجة قرب الدائمة المتمثلة فى الإنعام الإلهى «قل» .

بذلك تكون رحلة الإسراء والمعراج بمثابة إجابة مسبقة على
سؤال لم يكن محمد قد طرحه ولا كان من المنتظر أن يطرحه ،
غير أن ورود هذا السؤال على خاطره - بالنسبة له كبشر - كان
من الناحية النظرية قائماً ، كما أن احتمال تساؤل الآخرين - ولو
فيما بعد - عن أسس إيمانه بوجود الغيب كان وارداً ، فتم
الإسراء والمعراج لقطع الطريق على هذا وذاك .

فبالنسبة للسؤال الأول فإن التساؤل عن الغيب الذى ثبت أنه
لم يجر على لسان الرسول ولم تتحرك به شفتاه . . فإن احتمال
مروره - ولو كتساؤل داخلي - بات بالإسراء والمعراج معدوماً .

وأما بالنسبة لما قد يثيره الآخرون من شغب حول كيفية اكتمال
إيمانه صلوات الله وسلامه عليه بالغيب ، فقد أتاح له الإسراء
والمعراج اطلاعاً كاملاً على ذلك العالم الذى تحايل رسل الله

لرؤية مشاهد منه ، لذلك فهو ﷺ إن كان (أول المؤمنين) فما ذلك لأنه أولهم خلقاً فحسب ، بل لأنه أعلاهم يقيناً وأثبتهم إيماناً بما أتاحه له الإسراء والمعراج من معاينة بات معها يعلم علم اليقين بل عين اليقين أن . . « الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور » (١) .

وبالإضافة إلى ما سلف فإن ما نقول به :

✱ يربط الإسراء والمعراج بأسباب تبرر أهميته وتضعه فى موضعه الصحيح داخل إطار الدعوة الإسلامية ، فالهدف منه ليس التعزية أو التسلية أو التأييد بل تقديم الدليل المادى على وجود الغيب ، وهى غاية إن كانت لازمة للبشر عامة ، فإن بلوغ محمد ﷺ لها لم يكن له من سبيل إلا من خلال هذا الحدث الخارق للخطرير .

✱ يزيل التناقض بين الإسراء والمعراج وبين باقى وقائع السيرة ، فالرحلة لم تكن مجرد استعراض للقدرة الإلهية ، بل هى وسيلة عملية تتلاءم مع قدرات البشر الحسية ، وعلى ذلك فهى جزء من النهج الموضوعى الذى التزمته العقيدة الإسلامية فى كافة مراحلها وخطواتها .

(١) سورة الحج - الآية ٦ ، ٧

• يلغى التساؤل العقيم حول ما إذا كان الإسراء والمعراج بالروح أم بالجسد ، فالدليل المادى الذى استهدفته الرحلة لا يتحقق إلا بعين يقظة ترى وأذن متنبهة تسمع وفؤاد يحفظ ويعى .

• لا يقف بأثر الإسراء والمعراج عند الرسول وحده ، بل يتعداه إلى الإسلام كعقيدة وإلى المسلمين كمخاطبين بها .

فإيمان المسلمين بوجود الغيب - بعد الإسراء والمعراج - لم يعد يستند إلى الإحساس الفطرى وحده ، فمحمد ﷺ - الذى هو بشر مثلنا - قد عاين الغيب كله ونقل لنا ما سمع وما رأى فأصبحنا كمن سمع ورأى . . ومن هنا فلا يجوز للمسلم أن يتشكك فى عقيدة البعث والحساب ، وليس له أن يخوض فى مشاكل الحس وما وراء الطبيعة والعقل وما وراء الطبيعة فقد كفانا الإسراء والمعراج بمحمد عليه الصلاة والسلام مؤنة ذلك كله وقدم لنا الدليل عليه . وهكذا ينعم المسلم دون غيره باكتمال واستقرار إيمانه ، وبتوازن عناصر هذا الإيمان ، وإذا كان الإسلام هو دعوة الله المتجددة إلى آخر الزمان فإن المسلمين هم جنده ودعائه ، وما كان الله ليحملهم أمانة الدعوة لدينه ومسئولية البلاغ عنه إلا بعد أن . . أكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمته .

بهذا الدليل الذى أتاحه الإسراء والمعراج وباليقين الذى استتبعه أكدت الدعوة الإسلامية أصالتها ، وبرهنت على جديتها وسجلت

احترامها للعقل وإعلائها لقدر الإنسان بتبنيها للنهج الموضوعى الذى يتلاءم وقدراته ، وبذلك اندفع أتباعها الأوائل فى مجال التضحية والفداء إلى آخر المدى ، فسارعوا بالهجرة إلى المدينة متخليين عن أموالهم وأهليهم وأوطانهم ليحققوا للدعوة أولى خطواتها على طريق العمومية والعالمية ، وليعلنوا أن موطنها هو : قلوب الذين يعقلون ، ومستقرها فى عقول الذين يفقهون .

هكذا كان المسلمون .. وهكذا يجب أن يكونوا ، لا تجرى خطواتهم عبثاً ولا يدور تفكيرهم شططاً على نحو ما فعلوا فى حدث الإسراء والمعراج عندما انشغلوا بالخلاف حول ما إذا كان قد تم بالروح فقط أم بالروح والجسد ، بينما كان عليهم أن يجهدوا أنفسهم لبيان الإنجاز الذى حققه بالنسبة للرسول بصفة خاصة والإسهام الذى قدمه لتبليغ الدعوة هدفها النهائى بصفة عامة ، وذلك حتى يتأكد فى اعتقاد المسلم أن هذه الرحلة الفريدة لم تكن من قبيل الأحداث العارضة التى وإن نفع إثباتها فإن غيابها لم يكن ليتنقص أو يخل .. بل هى من أحداث السيرة الخطيرة التى تشكل مع غيرها من الأحداث وحدة صلبة متماسكة ، عليها وبها ينهض البناء الإسلامى شامخاً متكاملأ ، وبتخلف إحداها ينفرط عقدها جميعاً ويفقد الصرح عناصر ثباته .

وبعد ، فلماذا كان هدفى من هذا الكتاب هو بيان الحكمة من

الإسراء والمعراج ، فإنه لم يخطر ببالى أن ما ارتأيته هو الكلمة الأخيرة ، إنما هو على نحو ما قاله الإمام الشافعى رضى الله عنه «رأى ارتأيناه ومن جاءنا بأفضل منه اتبعناه» .

ويبقى بعد ذلك أن لهذا الكتاب رسالة عاجلة وغاية محددة :

أما الرسالة فهي : أن يتحرى المسلمون الدقة فيما يكتبونه عن دينهم بصفة عامة وعن رسولهم بصفة خاصة ، حتى لا تسوء كتاباتهم إلى العقيدة - بغير قصد - وحتى لا يشوهوا سيرة أفضل وأكمل الخلق ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وأما الغاية فهي : أن يتوقف الجميع فوراً ، ودون إشعار آخر عن ترديد الآراء السقيمة التى شاعت وذاعت كحكمة للإسراء والمعراج ، وهى فى حقيقة الأمر :

كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

مراجع الكتاب

- ١- القرآن الكريم
- ٢- تفسير الطبري
- ٣- تفسير الزمخشري
- ٤- تفسير الفخر الرازي
- ٥- تفسير القرطبي
- ٦- تفسير ابن كثير
- ٧- صحيح البخاري
- ٨- صحيح مسلم
- ٩- السيرة النبوية لابن هشام
- ١٠- الطبقات الكبرى لابن سعد (طبعة دار التحرير)
- ١١- زاد المعاد لابن القيم
- ١٢- فتح الباري لابن حجر
- ١٣- الاسراء والمعراج لمصطفى احمد الرفاعي
- ١٤- رسالة الاسراء والمعراج لعلي محمد شاكر
- ١٥- افضل منهاج في اثبات الاسراء للشيخ عبدالله المرافي
- ١٦- فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي
- ١٧- دراسات في السيرة النبوية للدكتور عبدالشافى عبداللطيف والدكتور محمد جبر أبو سعده
- ١٨- خديجة زوجة الرسول للاستاذ طه عبدالباقي سرور
- ١٩- عام الحزن للاستاذ عبدالحميد جوده السحار
- ٢٠- الظاهرة القرآنية للاستاذ مالك بن نبي
- ٢١- الله يتجلى في عصر العلم - ترجمة الدكتور الدمرداش عبدالمجيد سرحان
- ٢٢- احياء علوم الدين للغزالي
- ٢٣- العلم في منظوره الجديد - سلسلة عالم المعرفة
- ٢٤- الدين في مواجهة العلم لوخيد الدين خان
- ٢٥- المنقذ من الضلال للاستاذ الإمام عبدالعليم محمود
- ٢٦- رساله التوحيد للاستاذ الإمام محمد عبده
- ٢٧- الإيمان للدكتور على عبدالمنعم عبدالحميد
- ٢٨- تفسير جزء عم للاستاذ الإمام محمد عبده
- ٢٩- الإيمان لابن تيميه

رقم الايداع ١٠٩٩١ / ٩٥

أميرة للطباعة

عابدين - ت : ٣٩١٥٨١٧

.. وفى تعامله مع حدث الاسراء والمعراج التزم
الفكر الإسلامى بموقفين كلاهما خاطىء وعقيم .
أولهما : التركيز على وقائعه وكيفيته دون
بيان الحكمة منه بما يعنى إفراغه من محتواه
والانحدار به إلى مستوى قصص ألف ليلة وليلة
التي تقف عند حد الإيهار والتشويق .
ثانيهما : تبريره بأسباب متهاففة وعليلة على
نحو ما شاع واستقر من أن الغاية منه كانت تعزية
الرسول وتثبيتته أو تسليته وتأيينه ..

وفى هذا الكتاب :

محاولة جادة لتحديد الأسباب التي فرضت الاسراء
والمعراج وحتمت القيام به ، وبغض النظر عما قد
تواجهه المحاولة ذاتها من اعتراضات فان لهذا
الكتاب غاية وله رسالة اعتقد أن لن يختلف
عليها اثنان .